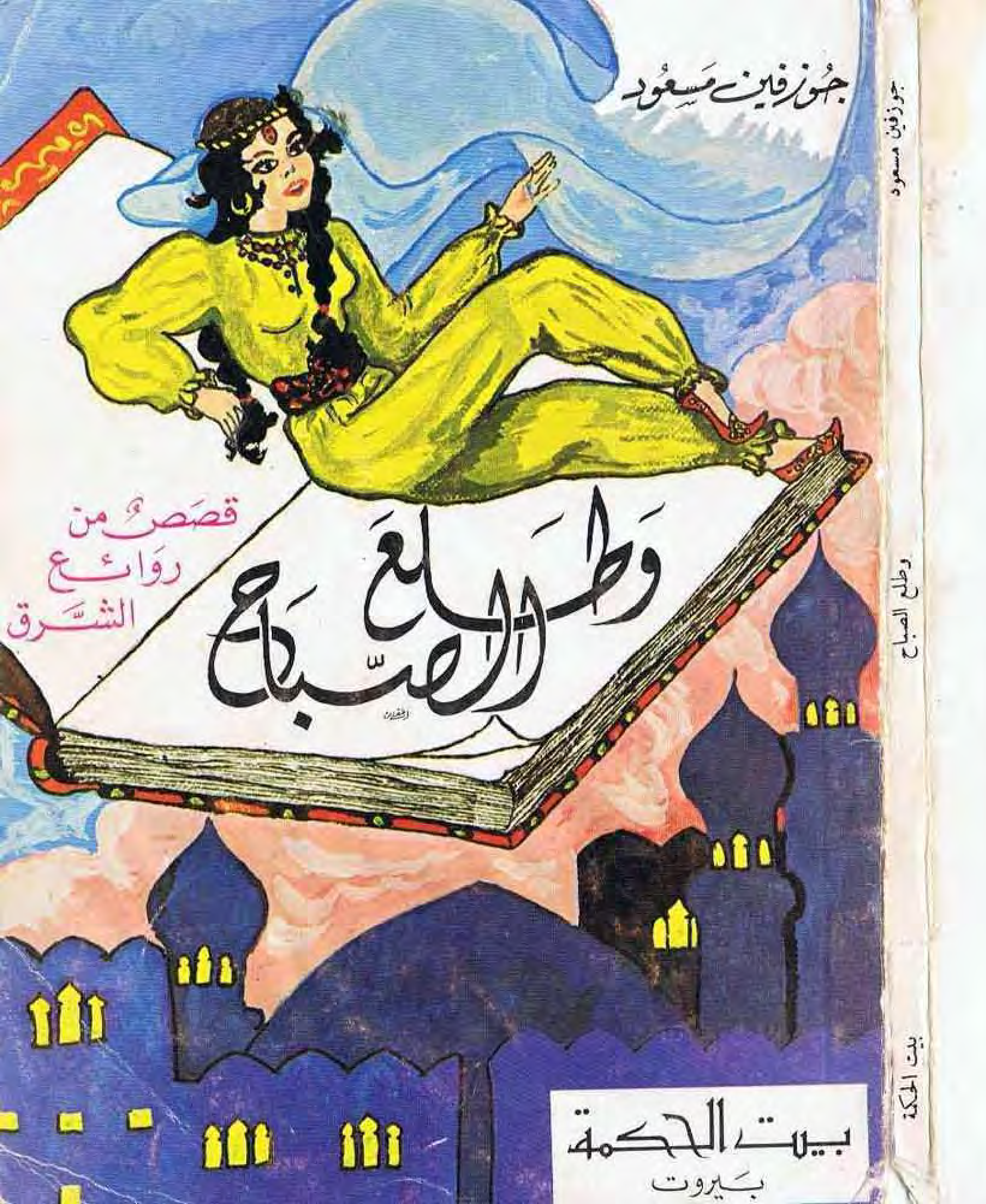


منشوراتنا القصصية

يصدرها : بيت الحكمة - بيروت

١	يا بياع السمسمية	لجوزفين وانطوان مسعود
٢	ابو الخيمة الزرقاء	لجوزفين وانطوان مسعود
٣	حدثني يا ابي	لكامل العبد الله
٤	اسرى الغابة	لانطوان مسعود
٥	ملح ودموع	لانطوان مسعود
٦	يوم عاد ابي	لرشاد دارغوث
٧	صندوق أم محفوظ	لروز غريّب
٨	جدتي	لجبران مسعود
٩	عنب تشرين	لادوار البستاني
١٠	عازفة الكمان	لصموئيل عبد الشهيد
١١	وكان مازن ينادي	لتوما الخوري
١٢	كانت هناك امرأة	لرشاد دارغوث
١٣	يوم غضبت صور	لنضال ابي حبيب
١٤	بابا مبروك	لرشاد دارغوث
١٥	الانامل السحرية	لجوزفين مسعود
١٦	المغني الكبير	لروز غريّب
١٧	جلجامش	لتوما الخوري
١٨	نور النهار	لروز غريّب
١٩	النسر الكريم	لانطوان مسعود
٢٠	رنين الخناجر	لجوزفين مسعود
٢١	النجمتان	لروز غريّب
٢٢	اين العروس	لجوزفين مسعود
٢٣	جزيرة الوهم	لاملي نصر الله
٢٤	الغرفة السرية	لصموئيل عبد الشهيد
٢٥	النار الخفية	لروز غريّب
٢٦	الحاج بجبح	لرشاد دارغوث
٢٧	جوهرة الجواهر	لجوزفين مسعود
٢٨	دهليز الغرائب	لفكتور حكيم
٢٩	التجاريب	لولي الدين يكن
٣٠	الصحائف السود	لولي الدين يكن
٣١	سلسلة من حكايات بيدبا	(٦ كتب للاطفال)
٣٢	كوب من العصير	لجوزفين مسعود
٣٣	المنجّم « عصفور »	لروز غريّب
٣٤	مغامرات أوليس	لتوما الخوري
٣٥	وطلع الصباح	لجوزفين مسعود

الثمن : ٤٥٠ ق. ل

جوزفين مسعود

وطلع الصباح

قصص من روائع الشرق

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف والرسوم بريشة « مرغريت أسمر »

الطبعة الأولى ، بيروت - لبنان ، نيسان (ابريل) ١٩٧٨

"شهْرزاد" وَ"شهْريَار"

في ساعة مبكّرة من صباح أحد الأيّامِ طرق رسولُ الملك « شهريار » بابَ الوزير « مرزوان » ، وأعلمه أنّ الملكَ يرغب في حضوره إليه حالاً .

قام « مرزوان » إلى ملابسه يرتديها ، وهو في حَيرةٍ من أمره : فما بالُ الملكِ يطلبه في مثل تلك الساعةِ ؟ وهَرْوَل الوزير إلى القصر ، فأدخله الحاجبُ توّاً على الملك ، فحيّاه الوزير في قلَق وارتباك .

قال « شهريار » وعلاماتُ الضّيقِ والانزعاج باديةٌ على مُحَيّاه :

ـ قمْ أيُّها الوزيرُ واجلِسْ بقربي .

ولمّا جلس الوزير قرب الملك راح « شهريار » يتطلّع إليه بإمعان من غير أن ينطق بكلمةٍ ، ممّا زادَ في همّ الوزير وخوفِه . وبعد فترة قصيرة قال « شهريار » :

ـ هل وجدْتَ لي زوجاً جديدةً أيُّها الوزير ؟

فردَّ الوزير متلعثماً :

ـ كلاّ يا مولاي ، ولكنّي ...

فقاطع الملك وزيره وصاح به منفعلاً :

ـ ولكن ماذا أيُّها الوزير المخلص ؟ أفصح من غير إبطاء ...

وخفض « مرزوان » صوته وقال بخوف :

ـ عفوَك مولاي ! لقد خلت المدينة من الفتيات اللواتي يَلِقْنَ بمقامكم العالي ، فأرسلتُ أعواني يبحثون عن فتيات خارجَ العاصمة ، وهم حتى الآن لم يعودوا .

وزجر « شهريار » صائحاً :

ـ ألمدينة الكبيرة هذه قد خلت من الفتيات

الجميلات اللواتي يلقن بمقامي ! أحقّاً تقول يا وزيري المخلص الأمين ؟ وماذا عن ابنتك « شهرزاد » ؟ لقد كثُرت الأقاويل عن جمالها وأدبها وذكائها . أفلا تليق ابنة وزيري أن تكون زوجاً لي ؟.. ما بالك لا تتكلمُ أيُّها الوزير ؟ أفلا تصلح ابنتك أن تكون زوجاً لملك البلاد ؟! أجبْ !..

وعلقت الكلمات في حلق « مرزوان » . ولكنَّ شررَ الغضب المتطاير من عينَي « شهريار » حلّ عقدةَ لسانه ، فقال بصوت خفيض :

ـ إبنتي عبدتكم يا مولاي ... إنّها لا تصلحُ أن تكون خادمة لكم ... وهي صغيرةُ السِّنّ ، قليلةُ الخبرة في الحياة ...

وعاد « شهريار » يقاطع وزيره غاضباً :

ـ أسكتْ أيُّها الوزير ! لقد تزوَّجتُ مَن هُنَّ أصغرُ من ابنتك سنّاً . أمّا عن جمالها وأدبها فلن أحكم عليها إلاّ بعد زواجي بها . وسيكون ذلك عاجلاً ، عاجلاً ... بعد أسبوع واحد . أسبوع

واحد لا غير ! قُمْ حالاً أيُّها الوزير واستعدَّ لحفلة الزِّفاف ، ولتكنْ حفلةً تليق بمقام الملك ومقامِ ابنة الوزير . لا تَبْخَلْ بالمال ، فخزينتي مفتوحة لك على مِصْراعَيها .

سجد الوزير بين يدَي مَليكه ، ثم عاد القَهْقَرى حتى خرج من الباب ، وهو لا يكاد يبصر طريقه من فَرْط همه وخوفه . وَيْلَه !... ويلَ ابنته !.. ويلَ « شهرزاد » المسكينة من المصير الذي ينتظرها !

عاد الوزير إلى قصره ، ودخل غرفته مسرعاً ، ثم هوى على الأريكة وهو ينتحب !... الملك « شهريار » يريد الزواج بابنته ! فماذا سيحلُّ بها ؟! وشعر برأسه ينفجر ، فقام إلى النافذة ففتحها ، ووقف يستنشق النسيم الباردَ المنعشَ . نظر إلى الحديقة الجميلة الممتدَّةِ أمامَه . كان منظرها في الماضي يُعيد الاطمئنانَ إلى نفسه في أشدِّ الحالات يأساً . أمّا اليومَ ؟..

وفجاةً تصاعدت في الحديقة قَهْقَهاتُ ابنتَيه « شهرزاد » و « دنيازاد » . كانت هذه الضحكاتُ تملأ قلبه سروراً وحُبوراً ، فما بالُها اليومَ تجرح قلبه وتُدميه ؟!

وخرج صوتٌ من بين الأشجار ينادي :

ـ أبتاه !.. أبتاه !.. أنظرْ إليَّ !.. إنني هنا في أعلى الشجرة ! أنظرْ ! إنَّ يديَّ تلامسان قِمَّة الشجرة !.. أبتاه ! ما لك لا تتطلَّع نحوي ؟

تطلَّع الوزير ناحيةَ صوت ابنته الصغيرة « دنيازاد » ، فرآها في الأرجوحة وقد أطلقَتْها يدُ أختها « شهرزاد » قويّاً حتى بلغت أعلى الأغصان . والفتاتان تتضاحكان لاهيتَين كعادتهما كلَّ صباح ، فزاد حزن « مرزوان » ، واشتدَّت لوعتُه .

لوَّحت له « شهرزاد » بيدها وقالت مبتسمةً :

ـ صباح الخير يا والدي .

وردَّ « مرزوان » وهو يتنهَّد :

ـ صباح الخير يا حبيبتي .

وصاحت «شهرزاد» ثانية :

- أبَتاهُ !.. سندخل لتناوُلِ الفَطور معك ، لن نتأخّر عليك ، إنتظرْنا .

أغلق الوزير النافذةَ ، وجلس يفكّر بالمصيبة التي حلّت ببيته . لا مَفرَّ من أن يُطلع «شهرزاد» على الواقع الأليم ... فعليه أن ينفّذَ أوامر الملك «شهريار» ويستعدّ لحفلة الزفاف ، وإلاّ جَلَبَ الدمارَ على أهل بيته أجمعين . مسكينةٌ «شهرزاد» ! ستكون هي الضحيّةَ ، ستكون كَبْشَ الفِداء للعائلة كلّها . وراح يفكّرُ : ماذا لو هرب بابنتَيه ، تاركاً الوزارةَ والسلطةَ والجاهَ ؟ ولكن إلى أين ؟ إنّ كلّ شبرٍ من المملكة يخضع لمراقبة الملك ، فلو تمكّن من الهرب والاختفاء فترةً من الزمان فلن يطولَ اختفاؤه ، لأنّ يد الملك طويلةٌ ، ولسوف تُدركُه لا مَحالةَ ! إنّه أدرى الناسِ ببطش «شهريار» وقدرتِه على الانتقام . لا !.. لا بدّ من إخبار «شهرزاد» . لا بدّ من ذلك . مسكينٌ «مرزوان» !

ضحّى من أجل ابنتَيه بسعادته بعد موت زوجه ، وعاهد نفسه أن يكون لهما أباً وأمّاً . فما كان ثمنُ حرمانه وتضحياته ؟ زواج الملك بابنته «شهرزاد» ، ثم موتها...نعم ، ستموت «شهرزاد» كما ماتت زوجاتُ «شهريار» السابقات . زواجٌ في المساء ، وسيفُ الجلاّد في الصباح ! سَهَرٌ ومَرَحٌ ليلاً ، وموتٌ ونُواحٌ وبكاءٌ صباحاً . هذا هو مصير كلّ فتاة يتزوّجها الملك !

ولمّا تضاربت هذه الأفكارُ في رأس الوزير ، هتف بصوت عالٍ : «ربّاه ! إرْحم ابنتي ونجّها من الموت الأكيد !»

في تلك اللحظةِ فُتح الباب ودخلت الفتاتان تركضان إلى والدهما وتقبّلانه بحبٍّ وحنان . ثم جلستا قربَه لتناوُل الفَطور . وانشغلت الفتاتان بالطعام والحديث فلم تنتبها إلى انقطاع والدهما عن الطعام . وأخيراً لاحظت «شهرزاد» ذلك فقالت مستغربةً :

ـ ما بالُك لا تأكل يا والدي الحبيب ؟.. آه ! لا بدَّ أنَّك مريض ... وجهُك أصفرُ ، وعلامات التعب باديةٌ على مُحَيَّاك ...

ثم صاحت باختها « دنيازاد » :

ـ كفاكِ هَذَراً ولعباً يا حبيبتي ! والدُنا مريض ، وهو بحاجة إلى الراحة .

وتوقَّفت الفتاتان عن الأكل ، فاحترق قلب الوالد لذلك ، ولكنَّه تمالَكَ نفسَه ، فقال لهما :

ـ إنَّني بخير وعافية ... وجعُ رأس بسيطٌ ، سيزول بعد لحظَات . أنظرا ! إنَّني آكل بشهيَّة ! هيَّا ، عودا إلى الطعام !

كان الكلُّ يتظاهرون بالأكل ، ولكنْ عبثاً حاولوا إخفاءَ قلقهم . فنادت « شهرزاد » الجارية لترفعَ الطعامَ ، ثم نظرت إلى أختها وقالت لها بعطف :

ـ إذهبي أيَّتها الحبيبةُ وأكملي قراءة الكتاب الذي أعطيتُك إيّاه . سأوافيك في غرفتك بعد قليل .

خرجت « دنيازاد » . وما أن أغلق الباب وراءها حتى قالت « شهرزاد » لأبيها بلهفة :

ـ والدي الحبيب !.. ما الخبرُ ؟ دَعْني أشاطرك همومَك وأحزانك ، علَّ ذلك يخفِّفُ عنك قليلاً .

قال « مرزوان » ورأسُه بين راحتَيه :

ـ بُنيَّتي الحبيبة ! همِّي كبير ، كبير ...

ـ لا تخفِ عنّي يا والدي شيئاً . إنّ عقلي راجحٌ ، وصدري واسع .

ـ أعلم ذلك أيَّتها الحبيبةُ ... إسمعي ... لا بدَّ من أن أُطلعَك على أمرٍ خطير يتعلَّق بك . الملك « شهريار » يريد الزواج بك ، وقد أمر بأن تجري حفلةُ الزفاف بعد أسبوع !...

رانَ على الغرفة صمتٌ رهيب . وأطرقت « شهرزاد » برأسها لهَول الخبر . زواج الملك بها يعني موتها على يد الجلاّد ! ستلقى المصيرَ الذي لقِيَتْه غيرُها من الفتيات اللواتي تزوّجهنَّ الملكُ « شهريار » .

ليتها تركت المدينة كما فعلت البقيَّةُ الباقية من فتياتها. لقد هربن خوفاً على أرواحهنّ من الملك . ولكنَّ أمر هربها لم يخطر ببال والدها، إذ لم ينتظر « مرزوان » قطُّ أن يتزوّج الملك ابنتَه ثم يُذيقَهـا المصيرَ المُرَّ الذي يذيقُه نساءه ، وهو وزيره المخلص ومستشاره الأمين .

نظر « مرزوان » إلى ابنته فوجدها مطرقةً تفكّر . فعاد إلى التنهُّد والتحسُّر . وسمعت « شهرزاد » تنهُّداتِه ، فرفعت رأسها وقالت :

ـ لا تَخفْ يا والدي ، ولا تيأسْ من رحمة الله . هل نسيتَ قول الشاعر :

قُلْ لمن يَحمِلُ همّاً إنَّ همّاً لا يَدومُ
مثلَما يَفنى سُرورٌ هكـذا تَفنى الهُمومُ؟

إتّكلْ على الله وعليَّ . لا بُدَّ من زواجي بالملك « شهريار » وإلاّ انتقمَ منّا جميعاً . قُمْ يا والدي الحبيبَ إلى أُمورك فدبِّرها ، أمّا أنا فسأفكِّرُ بطريقة للنّجاة ...

خرجت « شهرزاد » من حضرة والدها ودخلت على أُختها ، فأشرفت على قراءتها وكتابتها . ثم تركَتها بعدما وعدتها بقصَّةٍ جميلة تَرويها لها الليلةَ كعادتها في كلّ مساء .

أوَتْ « شهرزاد » إلى مُخْدعها ، ففتحت خزانة كبيرة من خشب الأبنوس جَمعت فيها أثمنَ الكتب ، وأكبَّت على القراءة . وظلَّت على هذه الحالِ ساعاتٍ طِوالاً .

كانت « شهرزاد » أشهرَ فتيات المملكة علماً وأدباً. سهر والدها على ثقافتها ، فجاءها بأكبرِ الفلاسفةِ والأدباء والشعراء ، فتتلمذت على أيديهم وحفظت عنهم معارفَهم ، وأصبحت ألمعَ مَن أتقنَ الحديثَ والرواية ، ونَطَقَ بالحِكَمِ والأمثال ؛ فذاع صِيتُها في الناس ، ووصل خبرُها إلى مسامع « شهريار » ، فرغب في الزواج بها . ولكنّه تردَّد كثيراً قبل أن يفاتحَ « مرزوان » بالأمر ، لأنَّه كان يعرف أنَّ زواجه « بشهرزاد » يَعني هَلاكها . ولكنَّ حبَّه

للتعرُّف إليها ، وسَماعِ أخبارها ، ومشاهدةِ جمالها ، جعله لا يُقيم وزناً لوزيره ولا لحياة ابنته . وهكذا طلب يدَ « شهرزاد » من أبيها وهو يخبّىء لها أسوأ مصير !

آه من النساء ما أعظمَ خداعَهنّ ! هكذا كان « شهريار » يفكّر . فهو لا ينسى أبداً الإهانةَ التي ألْحَقَتْها بـه امرأتُـه الأولى : أحبَّ تلك المرأةَ وأخلصَ لها ، قدَّم لها قلبه وعرشه ، فما كان جزاؤه ؟ لقد هجرَتْه وهربت مع أحد قوّاده ! فأقسم « شهريار » منذ ذلك الحينِ على الانتقام ، وكان انتقامه رهيباً : طاردَ زوجَه حتى أمسك بها ، ثم دفعها إلى الجلاّد فقطع رأسها ! وراح ، منذ ذلك الحينِ ، يتزوَّج في كلّ ليلةٍ فتاةً ، ثم يأمر بقطع رأسها في صباح اليوم التالي .

وبين يوم وآخرَ انقلب « شهريار » من ملك عادل رحيم إلى حاكم ظالمٍ طاغٍ . وخيَّم على المملكة كلّها جوٌّ رهيب من الرُّعب والهَلَع : خاف

الناس على بناتهم بعد ما قتل الملك عدداً كبيراً من النساء ، فقاموا بترحيلهنّ سرّاً إلى خارج البلاد .

خلتِ المملكةُ من الفتيات الجميلات ، فاضطُرَّ الوزيرُ « مرزوان » إلى أن يبحث عن زوجات للملك خارجَ المملكة . وكان هذا العملُ يتطلَّب الكثيرَ من الوقت والجهد . إلى أن كان يومٌ قرَّر فيه « شهريار » أن يتزوَّج « بشهرزاد » ابنةِ وزيره .

وأدركت « شهرزاد » سوءَ المصير الذي ينتظرها ، فرأت أن تُعملَ ذكاءها حتى تنجوَ بنفسها من هلاك أكيد ، وتُبعدَ شبح الموت عن الفتيات الباقيات . ولكنْ كيف ؟

قبل موعد الزفاف بيوم واحد جلست مع أختها « دنيازاد » حزينةً مهمومة . لم تكن قد اهتدت بعدُ إلى طريقة للخلاص . وشاركتها شقيقتُها الصغرى حزنَها وهمَّها ، ولا عجَبَ ، « فشهرزاد » هي أختها ورفيقتها ومؤنِستُها ومعلّمتها . من سيملأ سماء حياتها بعد اليوم ؟ من سيجلس بجانب سريرها

ليلاً يقصُّ عليها الحكاياتِ الجميلة كي تستسلمَ للنوم بسعادة واطمئنان ؟

تطلّعت « شهرزاد » إلى أختها عفواً ، فرأتها تمسح عن خدّها دموعها . فضمّتها إلى صدرها وهي تسألها :

– ما سببُ البكاءِ يا حبيبتي ؟

وشرقت « دنيازاد » بدموعها وقالت :

– فراقك يا « شهرزاد » ! بُعدُك عنّي يحرق قلبي .

أجابتها « شهرزاد » ملاطفةً :

– ولكنْ يا أختاه ، يمكنك أن تأتي إليّ ساعة تشائين !

– ساعة أشاء في النهار . أمّا في الليل فكيف أنام وأنت بعيدة عنّي ؟ « شهرزاد » ، حبيبتي ، خُذيني معك إلى القصر ، دعيني أعيش هناك لا أفارقك أبداً !

وحزّ الألمُ في قلب « شهرزاد » : كيف تُطلع هذه الطفلةَ البريئةَ على المصير الذي ينتظرها في القصر ؟ كيف تخبرها بأنّ هناك سيفاً مسلّطاً فوق رأسِها ؟ وفجأةً خطرت ببالها فكرةٌ جعلَتْها تطير فرَحاً :

– « دنيازاد » ! ستأتين معي إلى القصر ، ولكنّني بحاجة إلى معونتك لتحقيق طلبك .

وصفّقت « دنيازاد » بيديها سعيدةً :

– مُري ، فأمرُك مُطاعٌ أيّتُها الحبيبة !

– إسمعي لي جيّداً . ليلةَ الزّفاف لا تفارقيني أبداً ، بل اجلِسي حيثُ أجلِس . وعند انتهاءِ الحفلة ليلاً ابقي معي حتى ولو طلب إليك الملكُ أن تذهبي إلى غرفتك ؛ إبكي ، وانتحبي ، واسجدي بين يديه ، وتوسّلي إليه أن يبقيَني قربَك لأقصّ عليك قصّةً حتى تنامي . هل فهمتِ ما قلتُ يا « دنيازاد » ؟

وقفزت « دنيازاد » من مكانها وأخذت ترقص في

الغرفة وتزغرد من شدّة فرحها :

– ما أسعدَني ! ما أسعدَني !

ثم ركضت إلى أختها وضمّتها إلى صدرها وهي تقول :

– أحقّاً تريدين أن أكون بقربك ، لا أفارقك لحظةً يا أختاه ؟

– أريد ذلك من كلّ قلبي يا « دنيازاد » ... ولكنْ لا أدري إن كان الملك يوافق على ذلك . حاولي يا حبيبتي ، إبكي ، إبكي ، ربّما رقّ قلبه وأبقاني قربك حتى تنامي .

★

كان يوم الزفاف يوماً جميلاً مُشمساً . فقامت الجواري إلى « شهرزاد » فألْبَسْنَها ثوباً مَلَكيّاً مصنوعاً من المُخْمَل الأحمر ، ومطرَّزاً بخيوط من الذهب ؛ ثم زيّنّها بالحُليّ والجوهرات الثمينة التي أهداها إيّاها الملكُ « شهريار » .

وفي الوقت المحدَّد سارت « شهرزاد » بموكبٍ عظيم إلى قصر الملك ، تَحِفُّ بها الأميرات وسيِّداتُ المجتمع ومئاتُ الجواري .

كان قصر الملك قد امتلأ بوفود الأعيان من أمراءَ ونُبَلاءَ وأشرافٍ وحُكّام ، فوقفت القيانُ والجواري وهنَّ يَحْمِلْنَ العيدانَ والدُّفوفَ بانتظار قدوم العروس ، يُرافقهنّ المغنّون استعداداً للحَفْل العظيم . وجلس « شهريار » في قاعة العرش على مِنَصّةٍ مفروشةٍ بالدّيباج ، وقد لبس أغلى الثياب وأجملها ، وراح ينتظر قُدومَ « شهرزاد » بفارغ الصبر .

كان يتحرّق شوقاً لرؤية عروسه وتمتيعِ نظرِه بجمالها الذي تحدّثت به الألسُنُ . وفجأةً دقّت الطبولُ عالياً ، وانطلقت الأهازيجُ تشقّ الفضاءَ ، وأطلّت « شهرزاد » على القاعة كالبَدْر في كبِد السماء ؛ فتناهَبَتْها الأنظارُ وهي تتقدَّم لتجلِسَ قربَ « شهريار » ، وتعلّقت عينا الملك بها . كم هي جميلةٌ !

كم هي أنيقة ! إنَّها حقّاً رائعة ! لقد صدق الواصفون ، فلم يبالغوا في إطراء محاسنِها ! جمالٌ خارقٌ يتوّجُه علمٌ وأدب وذكاء . سيختبر ذكاءها وحُسْنَ حديثها بنفسه في المستقبل القريب . ولكن كيف ؟

وحار الملك في أمره : كيف يختبر ذكاء « شهرزاد » وهو الذي دَرَجَ على قتل زوجاته في صباح اليوم التالي لزواجه ؟ كيف يتعرّف إلى « شهرزاد » وسيفُ الجلاّد ينتظرها في الساعات الأولى من الصباح ؟ لا ! لن يسلّمَها للجلاّد غداً . سيرجئ ذلك إلى اليوم التالي .

وأبعدَ « شهريار » فكرةَ الموت عن خاطره ، وقرّر أن يتمتّعَ بالحفلة وينعمَ براحة البال . وتطلّعَ ثانيةً إلى ناحية زوجه وأخذ يتأمّلها بإعجاب وافتتان .

جلست « شهرزاد » قربَ الملك ، وإلى جانبها « دنيازاد » . والتفت الملك إلى الطفلة الصغيرة وابتسم لها ، فطاب قلبُ « شهرزاد » لهذه البادرة الكريمة .

أومأ الملكُ برأسه معلناً افتتاح الحفلة . فقام المغنّون والمغنّياتُ بالعزف والغناء ، وتبارتِ الجواري في الرقص على الأنغام ، ودارت على الحاضرين كؤوسُ الشراب وأطباقُ الحلْوى .

إنقضت ساعاتُ الليل الأولى كلمح البصر . وعند انتصاف الليل أشار الملك بيده ، فقام المدعوّون وغادروا القاعةَ ، ولم يبقَ فيها إلاّ « شهريار » و « شهرزاد » و « دنيازاد » وبعضُ الوصيفات المقرّبات. نادى « شهريار » إحدى الوصيفات :

ـ يا « مرجانة » ! خُذي الأميرة الصغيرة إلى الغرفة المعدّة لها لتنامَ .

وتقدّمت « مرجانة » من « دنيازاد » لترافقها إلى غرفتها ، فما كان من « دنيازاد » إلاّ أن أمسكت بيد أختها وازدادت بها التصاقاً . ثم تطلّعت إلى « شهريار » وقالت باكيةً :

ـ مولاي ! أرجوك ، دَعْني مع « شهرزاد » ! أخاف أن أنامَ وحدي !

وصاح الملك بانفعال :

- «شهرزاد» اليومَ ملكةُ البلاد، لم تبقَ رفيقةً لك! ستكون «مرجانة» قربك إلى أن تنامي! إذهبي حالاً برفقتها!

وارتمت «دنيازاد» على صدر شقيقتها، وعلا نحيبُها، واشتدَّ بكاؤها، فقالت «شهرزاد» لزوجها بصوت رقيق حنون:

- مولاي وسيِّدي! لي رغبةٌ واحدة عندك. دعني أجلس قرب «دنيازاد» حتى تنامَ، وما هي إلاّ دقائقُ حتى أعودَ إليك.

إستاء الملك من جرأة «شهرزاد»، ولكنَّ جمالها الباهر، ورِقّتها في المخاطبة، خفّفا من حدّته، فقال:

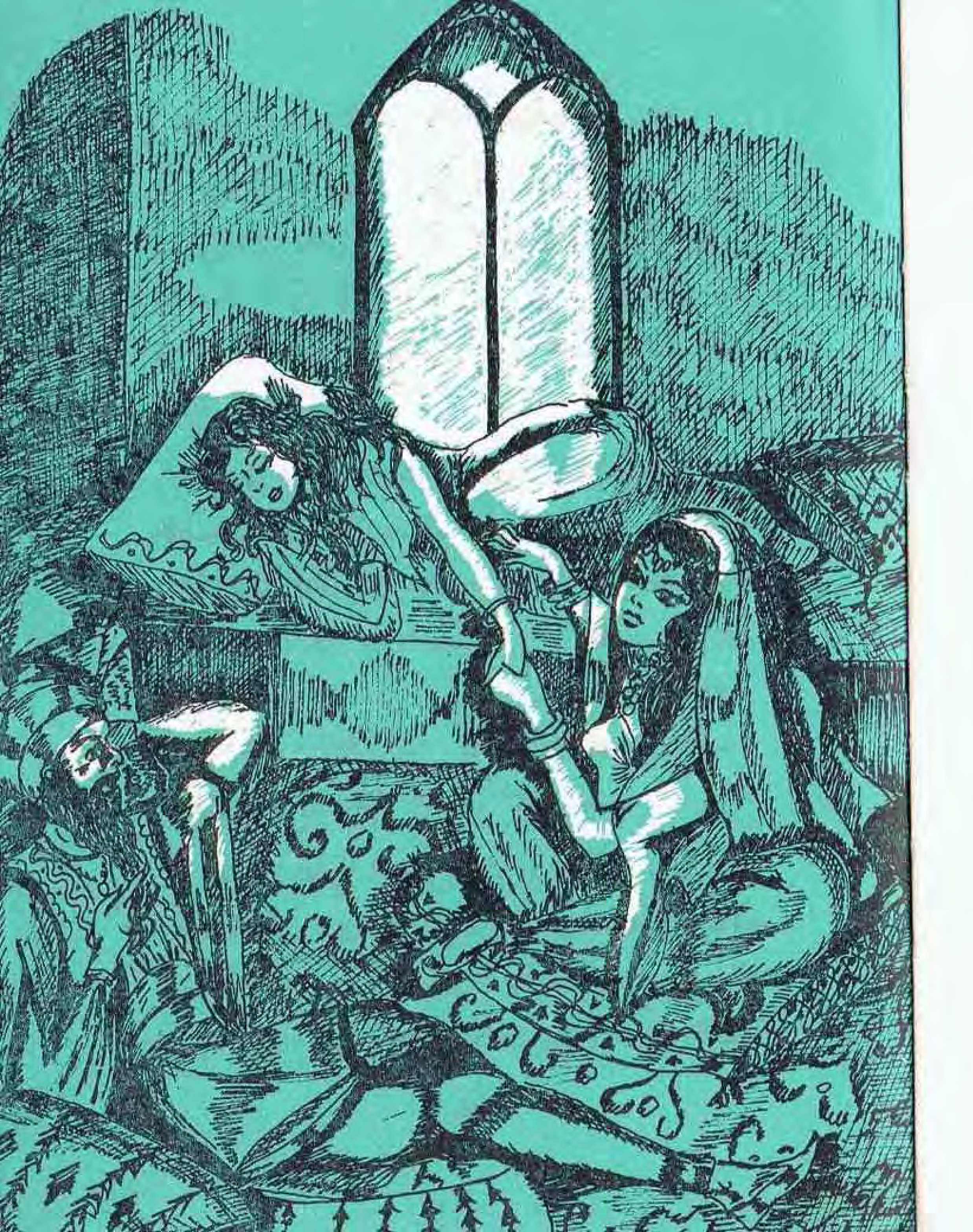
- لا بأسَ، شرطَ أن لا يطول غيابُك.

وانسحبت «شهرزاد» مع أختها، وقام الملك إلى مُخدعه ينتظر عودة عروسه. ولمّا طال انتظارُه قام غاضباً إلى غرفة «دنيازاد»، فدخلها على حين غَفْلةٍ، فرأى «دنيازاد» في سريرها وقد جلست

«شهرزاد» قربَها وهي تُمسك بيدها. ثم سمعها تقول:

- كان يا ما كان، في قديم الزمان وسالفِ العصرِ والأوان ...

وتوقّفت «شهرزاد» عن الكلام لمّا شاهدت «شهريار» يدخل الغرفة ويتقدّم نحوَها. أمّا الملكُ فقد زالت سَورةُ غضبه فجأة، وجلس أمام «شهرزاد» كالمأخوذ بنغم صوتها وحُسْنِ حديثها. ثم أشار إليها بأن تُكمل مابدأت به من حديث.



مغامرات "هاني[1]"

إستأنفت « شهرزاد » قصّتها :

« كان يا مـــا كان في سالف العصر والأوان ... بَلغني يا ملكَ الزمان ، وحاكمَ البُلدان ، أنّ مدينة « بغداد » ، عاصمةَ الخلافة العبّاسيّة ، كانت أعظمَ مدينة في ذلك العصر ، بناها الخليفةُ العبّاسيُّ « أبو جعفر المنصور » على نهر « دجلة » ، فامتدّت المدينةُ واتّسعت أيّامَ خلفاء « المنصور » ، وبخاصّة أيّامَ الخليفة « هارون الرشيد » ، وأصبحت مركزاً تجاريّاً هامّاً ، فكانت المخازن تعِجُّ بأثمنِ البضائع على اختلاف أنواعها ، كالأقمشة الحريريّة والقطنيّة المُزركَشة ، والسجّاد ، والرِّيـــاش ، والجواهر ، والعُطور ،

وكلّ ما تشتهيه النفس من أدوات الزينة .

عاش في « بغداد » في تلك الأيّامِ تاجرٌ كبير يُدعى « أبا هاني » . وكان كثيرَ المال ، يملك الدُّورَ والقصور . ولم يكن له من وريث سوى ولدٍ وحيد هو ابنُه « هاني » . ثم مات الوالد مخلّفاً لولده ثروةً طائلة .

وكان « هاني » شابّاً مليحاً وسيماً ، كثيرَ الأصحاب والخُلاّن ، تعوَّدَ حياة الرفاهية والتَّرَف ؛ فأخذ يُنفق المال من غير حساب ، ممّا جعل والدته تخاف على الثروة من الضَّياع ، فقامت إلى ابنها تُرشده وتنصحه . وأخيراً ، بعد طول مماطلةٍ ، رضخ « هاني » لكلام أمّه ، فقسم ثروته نصفَين ، أودعَ أمّه نصفاً ، واحتفظ بالنصف الثاني لنفسه .

ظلّ « هاني » على سيرته في اللّهو والسَّهَرِ مع الأصحاب ، وأهمل تجارة والده ؛ فاستغلّه رفقاؤه أبشعَ استغلال ، وصاروا يُنفقون من ماله ويُبَذِّرون حتى ذهبت ثروته . وفي أحد الأيّام

وجد « هاني » نفسه فقيراً مُعدِماً ، والدائنون يطاردونه من غير رحمة . فارتعب من هذه العاقبةِ المؤلمة ، وفكّر ، باديءَ الأمر ، بأن يتوجّه إلى أمّه طالباً معونتَها ، ولكنّه لم يفعلْ خوفاً من غضبها ولومها . فقام إلى أصحابه يطلب مساعدتهم ، ولكنّهم تنكّروا له ، فلم يسعِفْه أحدٌ منهم .

أخيراً لم يجد « هاني » بُدّاً من طَرق باب أمّه ، فدخل عليها حزينَ الفؤاد ، كسيرَ الخاطر . إضطرب قلب الأمّ لرؤية وحيدها على هذه الحال ، وسألته بلوعة :

ـ ما بالُك يا ابني ؟ أراك حزيناً مهموماً !

فأجابها « هاني » :

ـ أمّاه ! لقد صدق ظنُّك ، وتحقّقت أقوالُك . كنتِ تردّدين دائماً على مَسْمَعي هذا القولَ : « إن كان معك شيءٌ قرّبوك ، وإن لم يكن معك شيءٌ أبعدوك » . وها أنا الآنَ قد خسرتُ أموالي وأصحابي دفعةً واحدة . ولكنّ خسارتي مالي لا

تعادلها خسارتي الثقةَ بالأصحاب . إجتمعوا حولي ولزموني لمّا كنتُ موسِراً ذا مالٍ ، وها هم اليوم يتفرّقون عنّي ويُبدون لي الجفاء بعد ما نفِدت أموالي . وها أنا أعِدُك يا أمّاه ، وأُقسِم بتُربة أبي ، بأنّني لن أعودَ قطُّ إلى سابق سِيرتي . سأبتعد عن أهل السُّوء والكذب ، وساعلّق هذين البيتين من الشعر في صدر بيتي ومَتجري ليكونا لي عظةً ودرساً :

إنْ قلَّ مالي فلا خِلٌّ يُصاحِبُني
وإن زادَ مالي فكلُّ الناسِ خُلاّني

كَمْ من صديقٍ لأجلِ المالِ صاحَبَني
وآخرَ ، عندَ فَقْدِ المالِ ، عاداني

فتاكّدتِ الأمُّ من توبةِ ابنها ، وقدّمت له مبلغاً من المال وَفى به ديونه ، وجدّد تجارته .

راح « هاني » يعملُ طولَ النهار بجدٍّ ونشاط ، فانتعشت تجارته وزاد ربحُه . وعندما اطمأنَّ إلى أموره الماليّةِ اشتاقت نفسهُ إلى مُجالسة الأصحاب ،

ولكنّه لم يكن لِيَنسى ما جرى له مع أصحابه السابقين . وتَنازَعَه عاملان : عاملُ الشّباب وحبّ الحياة ، وعاملُ الخوف والحذر من غَدْر الناس . وأخيراً وجد لنفسه حلاً يُرضيه : كان ، بعد عودته من متجره كلَّ مساء ، يلبس ثيابَه ويخرُجُ متنزّهاً إلى جسر « بغداد » ، فيجلِسُ هناك عارضاً المارّة . فإذا شاهدَ شابّاً غريباً تلوح عليه عَلاماتُ الذكاء والعِزّ توجّه إليه ودعاه إلى منزله . وفي المنزل كانا ياكلان ويشربان ويتسامران ، حتى إذا انتصف الليلُ طلب « هاني » من زائره أن يغادر بيتَه ، من غير أن يسالهَ عن اسمه ، أو يعرّفه بنفسه .

دأبَ « هاني » على هذه الحالِ مدّة من الزمان ، لا يوطّد صداقةً مع أحد من زوّاره ... »

★

وتوقّفت « شهرزاد » عن الكلام لتستعيدَ أنفاسَها ، فناشَدَها « شهريار » ، وقد أخذتِ القصّةُ بمَجامع قلبه :

- أكْملي يا « شهرزاد » ، أكملي ...

فتابعت « شهرزاد » تقول :

« في ليلة من الليالي شعر الخليفةُ « هارون الرشيد » بضيق في صدره ، فخرج برفقة خادمه « مسرور » يتجوَّلُ في شوارع « بغداد » متنكِّراً بزيِّ التجّار . وكان يُحادث مَن يشاء من أبناء رعيَّته ، ويقف بنفسه على ما يجري حولَه من أمور تُخفى عنه في غالب الأحيان .

في تلك الليلةِ بالذات جلس « هاني » كعادته على جسر « بغداد » يتصيَّدُ ضيفاً جديداً ، وإذا بالخليفة ومُرافقِيه يمرّان به ، فاستوقفهما قائلاً :

- بالله عليكما يا صاحبَيَّ ، هل لكما بمرافقتي إلى منزلي ، نأكل هنيئاً ، ونشرب مريئاً ، وتسمعان من الأحاديث ما يُعجبكما ؟

تجمَّد الخليفة في مكانه متعجّباً . ودفعه الفُضولُ وحبُّ المغامرة إلى القبول ، فأجاب :

- حُبّاً وكرامةً أيُّها الغريب !

وسار الثلاثة إلى منزل « هاني » ، فأكلوا وشربوا وتحادثوا . ومضت الساعاتُ والخليفةُ لاهٍ ، سعيد ، مأخوذٌ بظَرفِ مُضيفه ولُطف مسامرته . ولمّا انتصف الليل طلب « هاني » من زائرَيه أن يغادرا منزلَه ، فأذعن الخليفةُ مستغرباً ، وقال له وهو يهمُّ بمغادرة المنزل :

- عرِّفْني بنفسك أيُّها الشابُّ ، فربّما حدّثتني نفسي بالعودةِ إليك والتمتُّعِ بحديثك اللذيذ مرّةً ثانية .

تبسَّم « هاني » وقال :

- هذه آخر مرَّةٍ نلتقي بها يا صاحبي .

تعجَّب الخليفةُ من جواب « هاني » وقال له :

- لِمَا لا تريدُ أن أزدادَ بك معرفةً ، فتتوثَّقَ عُرى الصداقة والأُلفةِ بيننا ؟

هزَّ « هاني » رأسه وأجاب :

ـ هيهاتِ يا سيّدي ، هيهاتِ ! ما فاتَ فاتَ ، وكلُّ شيء بيننا قد انتهى منذ هذه اللحظة .

غضب « الرشيد » من وقاحة « هاني » ، فصاح بغضب :

ـ تتحدّثُ بالألغاز أيُّها الشابُّ ! ما سببُ انقلابك عليَّ وكنتَ لي ، منذ لحظاتٍ ، خيرَ رفيق وصديق ؟ هل بَدَرَ منّي شيءٌ أدّى إلى قطع المودّةِ بيننا ؟

أجاب « هاني » :

ـ كلاّ يا سيّدي ، حاشا أن تكونَ قد أسأتَ إليَّ بشيء . ولكنّ حكايتي طويلةٌ ، وقصّتي غريبةٌ ، وخيرٌ لك أن تغادر منزلي الآنَ ، فالوقت قد تأخّرَ ، وعليَّ أن أستيقظَ باكراً لأذهبَ إلى عملي .

ـ لا واللهِ ! لن أغادرَ هذا المكانَ حتى أسمعَ قصّتَك كاملةً !

رَضخَ « هاني » للأمر الواقع ، وأخبر الخليفةَ

تفاصيلَ قصته . فضحك « الرشيد » وقال مُلاطفاً :

ـ إنّك لمعذورٌ في شكّك وحذرِك ، ولكنّني لستُ ناكراً للجميل كأصحابك السابقين ؛ لقد أحببتُ مجلِسك ، وسوف أعودُ إليه مرّةً أخرى .

ـ لا واللهِ يا رجلُ ! لن تراني بعد اليوم أبداً !

إشتدَّ عجب الخليفة ، ولكنّه لم يستسلم ، بل تابع يقول :

ـ أنا رجلٌ كثيرُ المال واسعُ السُّلطة . فهل من رغبة أحقّقها لك ، أو حاجةٍ لك أقضيها ؟

ـ ما في قلبي إلاّ رغبةٌ واحدة ، وليس مَن يَقدر على تحقيقها .

ـ أذكر رغبتك يا أخي وخلّصْني !

ـ دَعنا من المزاح ، فلا أنتَ ، ولا مَن هو أعظم منك ، بقادر على تحقيق ما في قلبي من رغبة . فقُمْ إلى منزلك حالاً !

وبهدوء عاد الخليفةُ إلى الجلوس وقال :

ـ لن أغادرَ هذا المكانَ قبل أن أعرف رغبتك . فإن أردتَ انصرافي فعجِّلْ في كلامك وأخبرْني بحاجتك .

ضحك « هاني » عالياً وقال :

ـ ما أعجبَ أمرَك يا صاحِ ! لِما تلحُّ في معرفة رغبتي ؟ وهَبْ أنَّني أطلعتُك عليها ، فهل أنت ساحر قدير لتحقِّقها لي ؟ ولكنْ ما دمتَ تصرُّ فهاكَ رغبتي : أودُّ لو أتولّى الخلافة يوماً واحداً !

ردّ الخليفة باستغراب :

ـ لما تشتهي الحكمَ ولو يوماً واحداً !؟

تضاحكَ « هاني » وقال :

ـ حُبّاً في الانتقام ! نعم ، الانتقام مِمَّن حوَّلَ حياتي إلى جحيم دائم : أربعة شبّان ملاعين ، يسكنون قرب منزلي ، يلاحقونني بسخريتهم ليلَ نهارَ !

آه !.. كم أشتهي أن آمر بضرب كلٍّ منهم ضرباً مبرِّحاً ! ثم يقومَ منادٍ فيدورَ بهم المدينةَ وهو يصيح مشيراً إليهم : « هذا جزاءُ مَن يُبغض جيرانهُ ويكدِّر عليهم صفوَ حياتهم » .

ضحك الخليفةُ عالياً ، ثم استوضحَ :

ـ أمرُك عجيبٌ ورَغباتُك أعجبُ ! تريد الخلافة ليوم واحد ، ولا ترغب إلاّ بالانتقام ؟!

وفيما هو يُكلِّم « هاني » تناول زجاجة الشراب وصبَّ منها كاساً سكب فيها ، على غفلةٍ من « هاني » ، بعضَ قطراتٍ من المخدِّر ، ثم ناول « هاني » الكاسَ قائلاً :

ـ خفِّف عنك يا صاحبي بهذه الكاسِ الأخيرة ، وتناسَ هؤلاء الشبّانَ الأشقياء .

أخذ « هاني » الكاسَ من الخليفة وجرعها دفعةً واحدة . وما أن استقرَّ الشرابُ في جوفه حتى سقط على الأرض لا حَراكَ به . عندئذٍ قال الخليفةُ « لمسرور » :

- إحملِ الشابَّ والحقْني به إلى القصر حالاً .

دخل الخليفةُ القصرَ من بابٍ خلفيٍّ ، وسار توّاً إلى مُخدعه ، و« مسرور » وراءَه . ألقى « مسرور » « بهاني » على سرير الخليفة ، وأمر « الرشيدُ » بإحضار الجواري حالاً . وفيما الجواري يُلبسنَ « هاني » ثيابَ الخليفة أقبل الوزيرُ « جعفر البرمكيّ » ، فشاهد شابّاً غريباً في سرير سيّده . نظر « جعفر » إلى الخليفةِ مستغرباً مستوضحاً ، فضحك « الرشيد » وقال :

- يا « جعفر » ، وأنتُنَّ أيّتها الجواري ، تأمّلوا جيّداً هذا الشابَّ ، فإذا رأيتُموهُ غداً جالساً على عرشي ، متوشّحاً بثيابي ، فقوموا بخدمته ونفّذوا أوامرَهُ وكأنّه الخليفةُ . وأنتَ يا « جعفر » أوصِ الأمراء وكبارَ الدّولة بأن يقدّموا له الاحترامَ .

نام « الرشيد » تلك الليلةَ في إحدى غرف القصر ، تاركاً « هاني » في مخدعه الخاصّ يغطّ في نوم عميق .

في صباح اليوم التالي نهض الخليفة من النوم

باكراً ، ونادى الجواري وقال لهنّ :

- إذا استيقظ الشابُّ من نومه فقبّلْنَ الأرضَ بين يديه ، واخدِمنَه ، وألْبِسْنَه حلّةَ الخلافة ، وردّدْن على مسامعه دائماً : « سمْعاً وطاعةً يا مولانا أميرَ المؤمنين » .

ثم دخل الخليفة مخدعه ، وجلس خلف إحدى السّتائر يراقبُ « هاني » وينتظر قيامَه . ولمّا طال نومه أشار الخليفة إلى جارية بأن تُوقظَه .

تقدّمت الجارية من « هاني » وهزّته بلطف وهي تقول :

- يا مولانا الخليفة ! أمَرْتَني بإيقاظك في مثل هذه الساعة لتقومَ بأداء الصلاة .

سمع « هاني » كلام الجارية لكنّه لم يفتح عينيه ، ظانّاً أنّه في حُلُم ، وسحب الغطاءَ على رأسه وأحبَّ الاسترسال في منامه . وقال في نفسه : « أنا الخليفة في المنام ، فلأمُرْ بجلد الشبّان

الأربعة ! .. »

عادت الجارية إلى « هاني » تهزّه ثانيةً ، فاستيقظ من نومه ، ولكنّه ظنّ أنّه ما زال يحلم . عندئذٍ قامت الجارية إلى النافذة ففتحتها ، وعادت إليه تهزّه بقوّة وتقول :

– لقد آنَ وقتُ الصلاة يا مولاي ! أخاف أن تلومَني إن أنت بقيتَ نائماً .

فتح « هاني » عينيه ، ونظر إلى مصدر الصوت ، فوجد فتاةً رائعةَ الجمال تنظر إليه باحترام . وأدار نظره حوله ، فشاهد مخدعاً واسعاً زُيِّنت جدرانه ونُقش سقفه ، وأُسدِلت على نوافذه وأبوابه ستائرُ من الحرير المزركش بالذهب .

فَركَ « هاني » عينيه وهو لا يصدّق : أفي يقظة هو ، أم في حلم ؟

وما لبث أن سمع أصواتاً تردّدُ :

– أنعمَ اللهُ صباحَك يا أميرَ المؤمنين !

أمير المؤمنين ! هو أميرُ المؤمنين ؟ ماذا يقولون !

وجلس « هاني » في السرير ، وحملق حوله : كانت الغرفة تَعِجُّ بالخدم والحَشَم ، بعضهم جاء بالثياب ، والبعض الآخر بالماء ، وكلُّهم بانتظار أوامره !

قعد في سريره كالمعتوه . ربّاه ! ماذا يجري حوله ؟ في تلك اللحظة أسرعت إليه جاريةٌ ووضعت وراء ظهره وسادةً وثيرة من ريش النّعام .

ضحك « هاني » عالياً وقال :

– يا جماعة ! أنا لست أميرَ المؤمنين . أنا « هاني » التاجر !

ثم خرج مسرعاً من الفراش وأخذ يدور في الغرفة ، والجواري يدُرْن حوله وهنّ ينادينه : « مولانا أمير المؤمنين ! مولانا أمير المؤمنين ! »

وتوقّف « هاني » أمام الجارية التي أيقظته . سألها :

– بحقّ السماء يا جارية ! هل أنا أمير المؤمنين ؟

أجابت الجارية ضاحكةً :

ـ مولايَ الخليفةُ لم يعوِّدْني المُزاح أبداً !

ـ تكذبين يا جارية ! واللهِ العظيم تكذبين !

ثم سار إلى أحد الخدم ، فما أن رآه الخـــادم متوجِّهاً نحـــوه حتى خرَّ على الأرض ساجداً له . أمسك به « هاني » وهزَّه بقوّة وسأله :

ـ مَن هو أمير المؤمنين يا غلامُ ؟

وغضَّ الخادمُ طرْفَه احتراماً ، وأجاب :

ـ أنت يا مولاي !

فصاح « هاني » بغضب :

ـ وأنت أيضاً تكذب أيُّها الغلام !

في تلك الأثنـــاء كان الخليفة « هارون الرشيد » يتابع هذا المشهدَ وهو يكاد ينفجر من الضحك ؛ ولكنَّه تمالكَ نفسه خوفاً من انكشاف أمره .

تقدَّمت الجارية من « هاني » وقالت :

ـ ثيابك جاهزة يا مولاي !

لبس « هاني » ثياب المُلكِ ، وقام إلى الصلاة ؛ ثم رافقَهُ الحَرَسُ إلى قاعةِ الحكم ، فجلسَ على سرير الخلافـة يُحيطُ به الوزراءُ والأمـراءُ والحكّامُ . والتفت إليه « جعفر البرمكي » وقال :

ـ أسعِدْتَ صباحاً يا خليفة الأمصار وحاكِمَ الأقطار ! عبدُكَ ووزيرُكَ بانتظار أوامرِكَ !

عندئذٍ زال عجبُ « هاني » وتأكَّد أنّه الخليفةُ بالذات . قد تخطىءُ الجواري ، وقد يخطىءُ الخدم ، ولكنْ لا يمكن أن يخطىء الوزير . فاشتدَّ عزمُهُ ، وقويت إرادتُهُ ، فنادى وزيرَه بصوت جَهْوَريٍّ :

ـ يا « جعفر » ! إستدعِ والي المدينة وسرْ برفقته إلى حيِّ النهر . هناك تجد بيت التاجر « هاني » . أدخلْ دارَه وسلمِّ أمَّهُ مبلغاً من المال وقلْ لها إنَّ المال أرسله لها ابنُها . ثم ادخـــلْ على دارٍ قرب المنزل المذكور فيه أربعةُ شُبَّان أشقياء ، فامسكْ بهم ومُرْ بضرب كلِّ واحدٍ منهم مئةَ سَوط ، ثم

أركبْهم على دوابّ ودُرْ بهم في المدينة مع منادٍ يصيح : « هذا جَزاءُ مَن يُقلق راحةَ جيرانه ، وينغّص عليهم حياتهم » .

غادر « جعفر » القاعةَ لينفّذَ ما أمره به « هاني » . وقام « هاني » إلى أمور الخلافة فَسيَّرها ، وظلّ يأمر ويَنْهى حتى آخرِ النهار .

في المساء سار في موكب من النُّدماء والشعراء إلى بَهوٍ كبير ، فقضى هناك ساعاتٍ طوالاً يأكل ويشرب على أنغام العازفين وأصوات المغنّين . وكان الخليفةُ « هارون الرشيد » يراقب « هاني » في كلّ لحظة ، ولكنَّه ظلّ متخفّياً عن الأنظار . ولمّا انتصف الليلُ أقبلت جاريةٌ جميلة وقدّمت « لهاني » كأساً من الشراب قد سكبت فيها بعض قطرات من المخدّر ، وقالت له :

– شرابٌ لا مثيلَ له جاء به الساعةَ أحدُ خدّامكم يا مولاي أمير المؤمنين !

صاح « هاني » وهو نشوان :

– هاتي الكأسَ يا فتاة !

ثم راح يشربها متلذّذاً متمهّلاً . وبعد لحظات هوى على الأرض ، فخرج الخليفة من مخبئه وتقدّم من « هاني » وربَّتَ كتفَه بحنان ، ثم نادى « مسروراً » وأمره بحمل الشابّ إلى منزله بعد أن تُخلَعَ عنه ثياب الخلافة .

*

في ضُحى اليوم الثاني استيقظ « هاني » من نومه وهو يظنّ أنّه لا يزال خليفة ، فاخذ ينادي على الجواري :

– يا « فُلة » ! يا « مسكة » ! يا « زمرُّدة » ! أين أنتنّ أيّتها الفتياتُ ؟

ولكنْ ما من مُجيب . وزاد صياح « هاني » ، فسمعته أمُّه ، فدخلت عليه مسرعةً وهي تقول :

– « هاني » يا ابني ! إستيقظْ ! أنت تحلم !

نهض « هاني » من سريره وحدّق بأمّه كمن

فَقَدَ عقله :

– كيف جئتُ إلى هنا بحقِّ السماء !

صُعقت الأمُّ لسؤال ابنها ، فأجابته بلطف :

– إستيقظ يا ابني . لا بدَّ أنَّك لا تزال تحت تأثير حلم مزعج .

– أخرجي من هنا أيَّتُها العجوزُ ! أهكذا تخاطبين أمير المؤمنين ؟ أغْرُبي عن وجهي حالاً ، ونادي الجواري !

بكت الأمُّ حيرةً وخوفاً ، وتأكَّدت أنَّ ابنها أصيب بنوبة من الجنون . تقدَّمت منه وأخذت تربِّت كتفَه وتقول :

– قُمْ يا ابني ، قم إلى متجرك ، فالوقت ضُحىً ، وقد تأخَّرتَ كثيراً .

نهض « هاني » من الفراش بعصبيَّة ، وتطلَّع حوله باستغراب : إنَّه في غرفته ، وهذه أمُّه أمامَه ! ثم تلمَّس ثيابه : أين حلَّةُ الخلافة ؟ أين

الجواهرُ والحليُّ ؟ أين المطربون والمغنِّيات ؟ كيف عاد إلى بيته ؟

أسئلةٌ عديدة بقيت من غير جواب . أمسك « هاني » برأسه يهزُّه بشدَّة ويقول : « أنا مجنون ! مجنون » ! ثم عاد يصيح :

– لا ! أنا الخليفة ! أنا « هارون الرشيد » !

إشتدَّ بكاءُ الأمِّ ، وأخذت تولول وتنوح : « ويلي ! ابني ! وحيدي ! مجنون ؟ »

ركض « هاني » نحو أمِّه ، وأمسك بكتفَيها وهزَّها بشدَّة وهو يقول :

– أُمَّاه ! لستُ مجنوناً ! كنتُ الخليفةَ بحقٍّ ! حكمتُ ، وأمرتُ ، وأرسلتُ لك مبلغاً من المال مع « جعفر البرمكيّ » ، ألم تتسلَّميه البارحةَ ؟ وطالبتُ بضرب الشبَّان الأربعة الوقحين والمناداة عليهم في المدينة .

صُعِقت الأمُّ لِما سمعتْ . أجلْ ، لقد تسلَّمتْ

بالأمس مبلغاً من المالِ ، وعرفت بقصَّة الشبّان الأربعة . ولكنّها لا تجدُ لهذه الأمور تفسيراً . كلُّ ما تعرفه أنَّ « هاني » هو ابنُها ، وأنَّه ليس خليفةً . وبقلبِ الأمّ اندفعت تقول :

ـ لقد تسلَّمتُ الدراهم البارحة ! وعرفتُ بضربِ الشُّبّان ! ولكنّ ذلك لا يجعلك « هارون الرشيد » ! أنت ابني ، وحيدي ! عُد إلى صوابك يا بُنيَّ وتعوَّذْ من الشيطان ، فالذي يجري معك الآن هو حيلةٌ من حيله .

وما انتهت الأمُّ من كلامها حتى أخذ « هاني » يرقصُ في الغرفة وهو يكادُ يطيرُ من الفرح :

ـ لقد نفّذ « جعفر » أوامري ، وجلد الشبّانَ الملاعين ، ونادى عليهم في « بغداد » كُلِّها ! إذاً أنا أميرُ المؤمنين ! أنا « هارون الرشيد » ! أمرتُ فأُطِعتُ !

وزاد صياح « هاني » ، وسمعه الناس في الخارج ، وانتشر الخبرُ حتى وصل مسامع شرطة الخليفة ،

فدخلوا البيت وانهالوا عليه بالضرب المبرّح .

وتدخّلت الأمُّ المسكينة بالأمر ، وأقنعت رجال الشرطة بأنّ ابنها مصابٌ بمسٍّ من الجنون . فصاح الجنود بها :

ـ إبنُك بحاجة إلى مستشفى الأمراض العقليّة يا امرأة !

ثم تقدّموا من « هاني » ، فشدُّوه برباط وحملوه إلى المستشفى. وهناك قام كبير الممرّضين يضربه ضرباً قويّاً حتى يُقلعَ عن ادّعائه بأنّه الخليفة . وكانت هذه هي الطريقة التي يُعالَج بها بعضُ مرضى العقول في تلك الأيّام .

بقي المسكين في المستشفى شهراً ذاق فيه الأمرَّين. ولمّا امتنع كليّاً عن ذكر الخليفة والخلافة ظنّوا أنّه شُفي نهائيّاً من مرضه ، فارسلوه إلى أمّه .

عاد « هاني » إلى بيته وظلّ مدّةً من الزمان منطوياً على نفسه ، لا يرغبُ في رؤية أحد . كان

كُلَّما وجد نفسهُ وحيداً يتساءل :

ـ كنتُ الخليفةَ ! أمرتُ ونهيتُ ! ولكن كيف ، وأين ؟

وفجأةً تذكَّر « هاني » زائره الأخير ، والحديثَ الذي دار بينهما ، وخاطب نفسه :

ـ ما أغباني ! إنّ زائري هو الشيطان ! لقد دخل بيتي على شكل إنسان !

وأقنع « هاني » نفسهُ بانّهُ سليمُ العقل ، وبأنّ ما جرى له هو من صنع الشيطان . ونام « هاني » تلك الليلةَ مُطمئنّ البالِ . وفي اليوم التالي استيقظ باكراً وقام إلى متجره سعيداً ، إذ تخلَّص من هزء الشبّان اللاعبين ومضايقتهم له . وفي المساء عاودَه الحنين إلى لهو الماضي ، فأسرع في ارتداء ثيابه وسار إلى جسر « بغداد » كسالف عادته ، يراقبُ المارّة باحثاً عن صديق جديد .

وفجأة لمح الخليفة و « مسروراً » يتقدَّمان منه ،

وكان الخليفة متنكّراً كما في المرّة الماضية . فهبّ « هاني » من مكانه كالملسوع يركض هارباً وهو يصيح :

ـ عاد الملعون ! عاد الملعون ! عاد الشيطان ومرافقه !

وانطلق الخليفة وراء « هاني » حتى أدركه وأمسك به . وقال له معاتباً :

ـ ما بالُك تهرب منّي يا « هاني » ؟ ما ذنبي حتى تعاملني معاملةَ الأعداء ؟

زجره « هاني » وهو يحاول الإفلات منه :

ـ دَعني وشأني يا رجلُ ! لقد جلبتَ عليّ مصائبَ الدنيا ! لن أعودَ إلى مجالستك أبداً .

ـ دَعْ عنك هذه الأوهامَ ياصديقي ، وقُمْ بنا إلى بيتك نتسامر !

ـ إبتعدْ عني أيُّها الشيطان الرَّجيم ! كفاني ما ذقتُ بسببك حتى الآن !

أخذ الخليفة يداور « هاني » ويحاوره حتى أقنعه ، بعد جهد ، بدعوته إلى منزله . وكان بانتظار « هاني » وزائره مائدةٌ عامرة بالطعام والشراب ، فجلس الجميع إليها يأكلون ويشربون . وقد انشرح صدر الخليفة وهو يتذكّر ما جرى له مع « هاني » في السابق ، وأراد المزيدَ من اللّهو فالتفت إلى « هاني » وقال :

ـ أخبرْني ! ما الذي جعلك تهربُ منّي ثم تدعوني بالشيطان الرجيم ؟!

قصّ « هاني » على الخليفة قصّته من أوّلها إلى آخرها ، والخليفةُ يضحكُ ، ويضحكُ ، حتى كاد يُغمى عليه من شدّة الضحك .

شارك « هاني » الخليفةَ سروره ، وقد زالت عنه مخاوفُه كليًّا . وعند انتصاف الليل ناول « الرشيد » « هاني » كأساً من الشّراب دسَّ فيها المخدّر خلسةً ، فشربها المسكين وهو لا يدري ، وللحال سقط في مكانه غائباً عن الوعي .

حمل « مسرور » « هاني » وسار به وراء الخليفة حتى دخلوا القصر كما في المرّة السابقة ، ووُضِعَ « هاني » على أريكة وثيرةٍ في قاعة الحفلات .

إستدعى الخليفة وزيره « جعفر » وأمره بأن يُعدَّ له مجلسَ غناء يَضمُّ أشهر المغنّين والعازفين . ولمّا انعقد المجلسُ أمرَ الخليفةُ ببدء الاحتفال ، ثم أسرع يختبىء وراء الستار ليراقب ما سيجري . إنطلقتِ الأصواتُ الشجيّة من كلّ جانب ، ترافقُها نغماتُ العيدان والدُّفوف ، وتوسّطت الراقصاتُ القاعة وأخذن يتمايلْنَ على إيقاع المعازف . وتقدّمت « فُلّةُ » ، الجارية الجميلةُ ، من « هاني » بأمرٍ من الخليفة ، وهزّتهُ هزّاً خفيفاً ، ففتح عينيه للحال وقد صحا من تأثير المخدّر .

نظر « هاني » حوله وهو يكاد لا يصدّق ! وهتف :

ـ لا حولَ ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم ! أفي يقظة أنا أم في منام ؟

فقالت له « فلّة » :

ـ مجلسُ الغناء بانتظارك يا أميرَ المؤمنين !

لطم « هاني » وجهه وصاح :

ـ أسكتي أيّتها المجنونة ! أنا « هاني » التاجر وحسب !

ضحكت الجارية وردّت عليه بدلال :

ـ مولاي يحبّ المزاح اليومَ !

عاد « هاني » يضرب رأسه صارخاً :

ـ إخرسي يا فتاة ! مستشفى الأمراض العقليّة بانتظاري ! فخافي الله ، واتركي الخلافةَ للخليفة ، واتركيني أنا وشأني !

إبتسمت الجارية بخبث وأجابت :

ـ أحقّاً تريدني أن أناديك « بهاني » التاجر ، يا أميرَ المؤمنين ؟

هبّ « هاني » من مكانه وتقدّم من غلام صغير يقف بعيداً ، وساله :

ـ من أنا يا غلام ؟

أطرق الغلام برأسه احتراماً وأجاب :

ـ « هارون الرشيد » أمير المؤمنين !

وزعق « هاني » متوعّداً :

ـ وَيحَك يا فتى ! أنت أيضاً تكذب !

في تلك اللحظة سُمع من وراء الستار ضحكٌ وقهقهةٌ ، فتسمّر « هاني » في مكانه مشدوهاً وهو يتساءل :

ـ هذه الضحكة أعرفها ! أعرف صاحبها !

وللحال ارتدّ إلى الوراء وركض نحو مخبإ « الرشيد » ، فأزاح عنه السّتار مذعوراً وهو يصرخ :

ـ إنّه هو ! هو الشيطان بعينه ! خلّصوني منه يا أهل الخير !

سقط الخليفة على الأرض من كثرة الضحك ، و « هاني » ينظر إليه برعب . ثم تلفّت حوله فشاهد

الحضور في أماكنهم لا يهرعون لمساعدته . وتجرّأ « هاني » وتقدّم من الخليفة بحذر :

ـ عرفتُك ! أنت الشيطان ! أنت الذي حوّلْتَني إلى خليفة زائف ! أنت سبب مصائبي كلّها ! وهؤلاء القوم زائفون ! وهذا القصر زائف !

وهنا تقدّم « جعفر البرمكي » من « هاني » وزجره بقسوة :

ـ إلزمِ التهذيبَ يا فتى ! أنت في حضرة الخليفة « هارون الرشيد » !

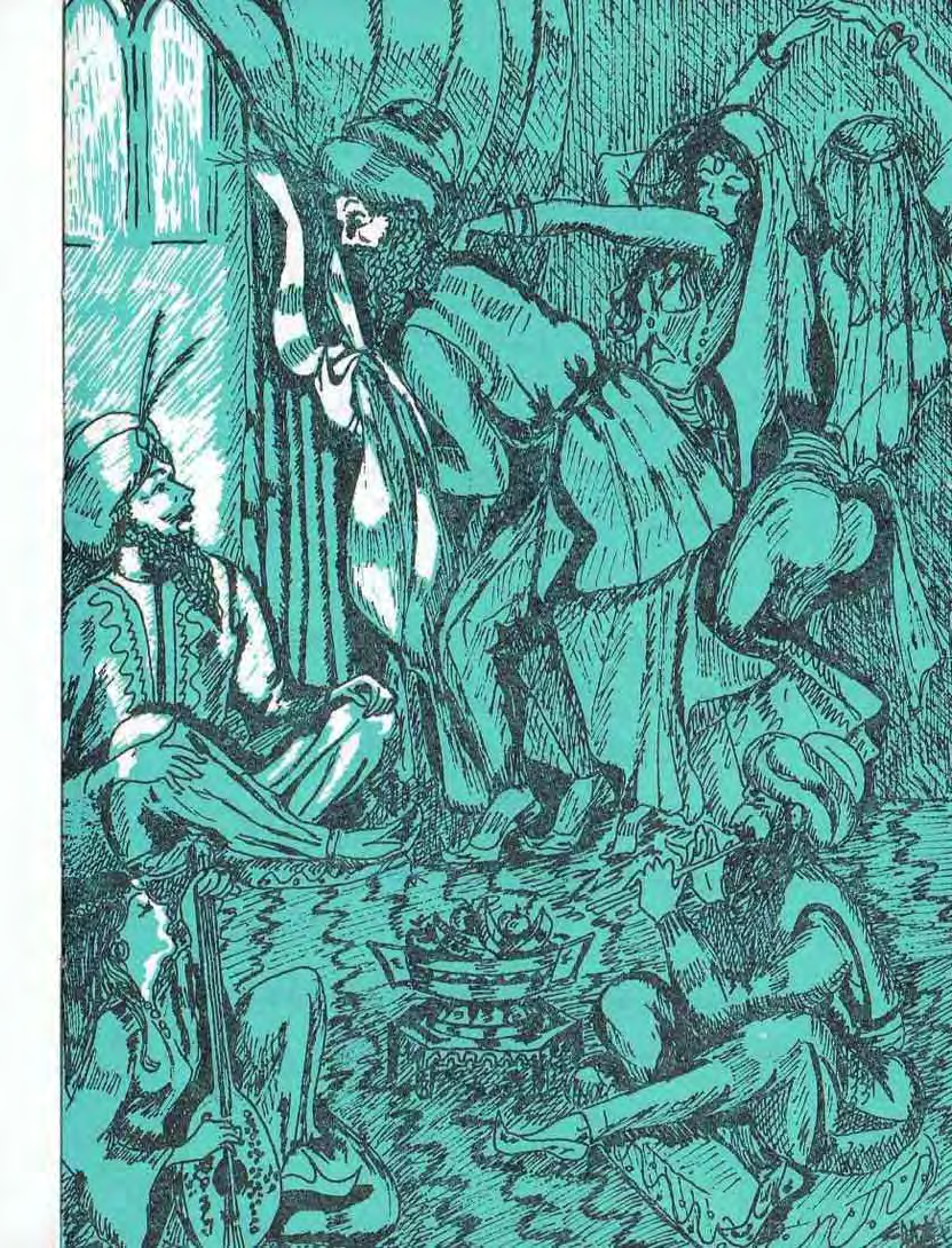
وفجأة اتّضحت الحقيقة « لهاني »، فتبخّر غضبه، وتملّكه رعبٌ شديدٌ . سيبطش الخليفة به لا محالةَ !

خرّ « هاني » ساجداً أمام « الرشيد » وهو يردّد :

ـ عفوَكَ مولاي ! عفوَكَ مولاي !

عاود الخليفةَ الضحكُ مجدّداً ، ثم قال :

ـ واللهِ يا « هاني » لقد أزلْتَ عنّي همومي وأضحكْتَني ما يكفيني دهراً . إطمئنّ ولا تخفْ .



فأنت منذ اليوم تلازم قصري ، وتصبح واحداً من ندمائي المقرّبين » .

وانبلجت تباشير الصباح ، فصاح الديك مبشّراً بقدومه .

وضحك الملك « شهريار » ، وشاركته « شهرزاد » و « دنيازاد » الضحكَ . وقال :

ـ طلعَ الصباح يا « شهرزاد » ولم نَدْرِ به . هل انتهت القصّة ؟

ـ كلاّ يا مولاي ، وبقيّتُها أفضلُ وألذُّ . سأسمعك إيّاها مساءَ هذا اليومِ المبارك .

ـ هيّا بنا إلى النوم إذاً !

وقال « لدنيازاد » :

ـ سنلتقي مساءً في هذا المكان للاستماع إلى

بقيّة القصّة . أليس كذلك يا صغيرة ؟

ثم خرج برفقة زوجته .

في مساء ذلك اليومِ التأم شمل الثلاثة في غرفة « دنيازاد » . وكان « شهريار » شديد اللهفة لسَماع ما تبقّى من قصّة « هاني » ، لذلك عاجَلَ « شهرزاد » بقوله :

ـ هاتي يا « شهرزاد » أخبرينا بما جرى « لهاني » . أسرعي ، باللهِ عليكِ !

واستجمعت « شهرزاد » أفكارَها ، ثم قالت :

« دخل « هاني » قصر الخليفة ، وأصبح من أقرب خلاّنه إليه . وكان كلّما تملّك « الرشيد » التعبُ والإرهاقُ نادى عليه ، فيُقبل « هاني » ويسلّيه ، وللحال يعود إلى الخليفة صفاؤه وراحةُ باله ، لأنّ

« هاني » كان خيرَ من أضحك وسلّى .

إستظرفت السيِّدة « زبيـــدة » ، زوجُ « هارون الرشيد » ، مجلس « هاني » ، فشاركتْ زوجَها مُلَحَه وأخبارَه . وكان برفقـــة « زبيدة » دائماً وصيفتُها « نزهة الفؤاد » ، فوقعت الوصيفة في حبّ « هاني » ، وبادلها « هاني » حبّاً بحبّ . وبارك « الرشيـــد » وزوجُه حبَّهما ، فزوَّجاهما وأسكناهما في بيت صغير جميل يقع في طرف من أطراف حديقة القصر .

وكانت « نزهة الفؤاد » مُسرفـــةً مبذِّرة ، تُنفق المالَ من غير حساب . وفي أحد الأيّام وجد « هاني » نفسَـه مُفلساً ليس في جيبه درهم واحد .

صارح « هاني » زوجَـه بالأمر ، وأخـــذا يفكّران بطريقـة يحصلان بها على المـــال . وفجأة هلّل « هاني » وقال :

– لقد وجدتُ طريقة لتحصيل المال .

– أخبرني بالله عليك كيف ، ونحن قـــد أنفقنا

معاش الخليفة ، وأموال المتجر ، وأموال أمّك ؟!

– إجلسي واسمعي !

أجابته « نزهة الفؤاد » ببرودة :

– سمعاً وطاعة . هاتِ أطلِعْني على خُطّتك .

– نتظاهر نحن الاثنين بالموت . أبدأ أنا أوّلاً ، وأنت تذهبين إلى السيِّدة « زبيدة » وتُعلمينها بموتي ، فتعطيك مبلغاً من المال للقيام بأمور الدفن والجنازة . ثم تتاوتين أنت بدورك ، فأذهب أنا إلى الخليفـــة وأُطلعه على خبر موتك ، فيعطيني مبلغاً من المـال لدفنك . وهكذا نحصل على المال يا زوجتي الحبيبة .

وصفّقت « نزهة الفؤاد » إعجاباً وقالت :

– حيلة ممتازة ! سيضحك لهـــا الخليفة والسيّدة « زبيدة » عند اكتشافها الأمر ، ولكنْ بعد أن نكون قد حصلنا على المال .

وهكذا كان . فكّت « نزهـــة الفؤاد » شعرها وأسرعت إلى السيّدة « زبيدة » وهي تلطم وجهها

وتولول :

ـ مات « هاني » يا مولاتي ! مات زوجي ! يا لَشقائي من بعدك يا « هاني » !

صُعِقت السيّدة « زبيدة » للخبر ، وكانت تحبّ « هاني » لِما كان يُضفيه على حياة البلاط من أنسٍ وبهجة . وأخذت تواسي « نزهة الفؤاد » وتُخفِّفُ عنها ، ثم قالت لها :

ـ قومي إلى بيتك يا بُنيّتي ، وجهّزي المسكين إلى مَثواه الأخير .

ثم أعطتها مئة دينار ذهباً . وخرجت « نزهة الفؤاد » وهي تنوح وتولول حتى غابت عن أنظار السيّدة « زبيدة » ، وللحال انطلقت مسرعةً إلى زوجها وأخبرتهُ بما جدَّ . فضحك « هاني » طويلاً وقال :

ـ أحسنْتِ التمثيلَ يا نزهة فؤادي ! والآن جاء دورُك لتتماوتي .

خرج « هاني » مُسرِعاً إلى القصر ، ودخل على الخليفة « هارون الرشيد » وهو ينتحب . طار صواب الخليفة واستوْضحَ « هاني » عن المصيبة التي ألمّتْ به ، فأجاب وهو يبكي :

ـ « نزهة الفؤاد » يا مولاي ! « نزهة الفؤاد » ماتت !

ضرب الخليفة كفّاً بكفٍّ وصاح :

ـ لا حَولَ ولا قوّة إلاّ بالله ! مسكينٌ أنت يا « هاني » ! هوّنْ عليك يا رجل ، فهذه حال الدُّنيا .

ثم تناول كيساً فيه دنانيرُ وأعطاها « هاني » قائلاً :

ـ خُذْ هذه الدراهمَ ، وقمْ إلى بيتك وجهّز المسكينة للدفن .

إمتثل « هاني » لأوامر الخليفة ، ورَجَع راكضاً إلى بيته . أمّا « الرشيدُ » فعاد يضرب يداً بيدٍ ويقول :

– كيف أخبرُ « زبيدة » بالأمر ، وكانت لها « نزهة الفؤاد » الوصيفةَ الوفيّة ؟ كيف ! كيف !

★

وتوقّفت « شهرزاد » عن الكــلام لتستجمع أنفاسها ، فهتف « شهريار » مستعجلاً :

– وماذا بعدُ يا « شهرزاد » ؟ عجّلي وأخبرينا !

وأردفت « شهرزاد » تقول :

« وما أن تركت « نزهة الفؤاد » السيّدةَ « زبيدة » حتى تملّكت زوجةَ « الرشيد » الحيرةُ : كيفَ تخبر زوجها بموت نديمه ؟

وأخيراً قوّت عزيمتها ودخلت على « الرشيد » . وفيما هي تتقدّم منه إذا به يبادرها وهــو متجهّم الوجه ، حزين القلب :

– سلمتْ حياتُك يا « زبيدة » ، وأطال اللهُ في عمرك بعد موت جاريتك « نزهة الفؤاد » .

وصرخت « زبيدة » متعجّبةً :

– ماذا تقول يا مولاي ؟ إنّ « نزهة الفؤاد » حيّة ترزَق ! جاءت منذ لَحظَات لتخبرَني بوفاة زوجها ! سلمتْ حياتُك ، وأمَدَّ اللهُ في أيّامك يا مولاي !

وردّ الخليفة بانفعال :

– لا بدَّ أنّ الحزن لموت « نزهة الفؤاد » قد أثّر عليك فاختلطت عليك الأمورُ يا « زبيدة » . « نزهة الفؤاد » هي التي ماتت ، عرفتُ ذلك من « هاني » نفسِه . وقد غادرني قبل قدومِك إليَّ بلَحَظات .

قالت « زبيدة » بسخرية :

– لا بدَّ أنّ الحزن كان أكثر تأثيراً عليك منه عليّ ! فالذي مات هو « هاني » ، و « نزهة الفؤاد » بألف خير والحمدُ لله !

ردّ الخليفة بجدَّة :

– ما مات إلاّ « نزهة الفؤاد » ! و « هاني » لا يزال على قيد الحياة !

ودار الجدل بين الزوجين ، و « مسرور » واقف بالباب ينظر إليهما بحيرة . وصاح الخليفة :

– أتراهنين يا « زبيدة » ؟

وأجابت « زبيدة » بعناد :

ـ نعم أراهن ! « هاني » هو الذي مات !

قال الخليفة متجاهلاً كلامَها :

ـ حسناً ! ألرهان بيننا بستانُ النزهة خاصّتك ، ولؤلؤة اللآلىء خاصّتي . فإذا كان الميت هو « هاني » ربحتُ منك البستان ، وإذا كانت « نزهة الفؤاد » هي التي ماتت ربحتِ أنت لؤلؤة اللآلىء .

أجابت « زبيدة » برباطة جاش :

ـ قبلتُ الرهان !

والتفت الخليفة إلى « مسرور » وأمره :

ـ إجْرِ إلى منزل « هاني » وادخلْه ، وانظرْ مَن مات : « هاني » أم زوجته ، وعُدْ بالحال !

إنطلق « مسرور » إلى منزل « هاني » . رآه « هاني » مقبلاً ، فقال « لنزهة الفؤاد » :

ـ هيّا تمدّدي على الفراش ، ودعيني أعصب عينيك وأربط قدميكِ .

وقعد « هاني » عند رأس « نزهة الفؤاد » وأخذ يتظاهر بالبكاء والنحيب . وما أن رأى « مسروراً » داخلاً حتى صاح به :

ـ « مسرور » ، يا صديقي ! ماتت « نزهة الفؤاد » وخلّفَتْني وراءها . لا بدَّ لي من الموت ، فالحياةُ من بعدها لا تُطاق .

وتقدَّم « مسرور » من الفراش وأزاح الغطاء عن « نزهة الفؤاد » ، فوجدها لا حَراكَ بها ، فأعاد الغطاء وهو يقول :

ـ رحمة الله عليك يا « نزهة الفؤاد » !

ثم غادر البيت مهرولاً ، ودخل على « الرشيد » ، وقال وهو يلهث :

ـ مولاي ! لقد شاهدت « نزهة الفؤاد » جثّةً هامدة ، وبقربها « هاني » يبكيها بدل الدمع دماً .

وتقدّمت « زبيدة » من « مسرور » وقالت غَضْبى :

ـ يا لك من كاذب ماكر !

ثم نادت جاريتها العجوز :

ـ إمضي يا « مرجانة » إلى بيت « نزهة الفؤاد » وانظري من مات ، وعودي من غير إبطاء .

وما ان خرجت الجارية حتى ضحك الخليفـــة وقال هازئاً :

ـ خسرتِ الرهان ، وفقدتِ أجمل بستان !

فردَّت « زبيدة » :

ـ لا ، لم أخسر شيئاً ! من يصدِّق عبداً « كمسرور » ، ويكذِّب « زبيدة » زوجة أمير المؤمنين ؟

أقبلت « مرجانة » على بيت « هاني » فرآهـــا « هاني » وأدرك أنّ « زبيدة » هي التي أرسلَتْها ؛ فاسرع إلى الفراش وتمـــدَّد عليه ، ثم ربط رجليه وعصب عينيه . وجلست « نزهة الفؤاد » قربه وقد حلَّت شعرها ومزّقت ثيابها ، وراحت تصيح وتبكي بصوت مسموع :

ـ يا « هاني » ! رُدَّ عليَّ يـــا حبيبي ! لِما تركتَني وحيدة ؟ وا حرَّ قلْباه على شبابك !

دخلت « مرجانة » وتقدَّمت من الفراش متهيِّبةً حزينة . رفعت الغطاء عن وجه « هاني » ، فوجدته جامداً ، مُمْتَقِـــعَ اللون . فخافت من منظره ، وأعادت الغطاء عليه . ثم تقدَّمت من « نزهة الفؤاد » فقبَّلَتْها معزِّيةً وانصرفت من ثمَّ عائدة إلى القصر ، فدخلت على الخليفة وزوجته ، وأخبرتهما بما رأت وما سمعت .

وتدخَّل « مسرور » منفعلاً :

ـ هذه العجوز قد دبَّ فيها الخرَفُ ! أنا رأيت « نزهة الفؤاد » على سرير الموت ، « وهاني » جالسٌ بقربها يندب ويبكي .

وردَّت عليه الجارية :

ـ ألكاذب هو أنت ! أنا رأيت « هاني » على فراش الموت ، لا زوجته .

وصاح الخليفة بهما زاجراً :

– أسكتا !.. تعالي يا « زبيدة » ، لنذهب جميعنا إلى بيت « هاني » ولنتحرَّ الحقيقة .

سار الخليفة وزوجته يتقدَّمهما الخادمان إلى منزل « هاني » . وكان هاني و « نزهة الفؤاد » لا يفارقان النافذة بانتظار القادمين الطارئين ، فشاهدا الموكب متَّجهاً نحوهما ، فقالت « نزهة الفؤاد » مرتعشةً :

– ما العملُ يا « هاني » ؟ لقد ضاق علينا الخِناقُ ! كيف الخلاصُ من هذا المأزق ؟

وردَّ عليها « هاني » بهدوء :

– هيّا بنا نتماوت معاً ، فلا نكذِّب الخليفة ولا نكذِّب زوجتَه !

وللحال تظاهرا بالموت ، وتمدَّدا جنباً إلى جنب على فراش واحد . دخل الخليفة و « زبيدة » والخادمان فوجدوا الزوجين جامدين لا حياة بهما ، فبكت « زبيدة » وقالت :

– مسكينة « نزهة الفؤاد » ، قتلت نفسَها حزناً على زوجها !

وقاطعها الخليفة :

– بل مسكين « هاني » ، قتله حبُّه « نزهة الفؤاد » ووفاؤه لها !

عاد الزوجان إلى الجدال وكثر اللغط في الغُرفة . فصاح الخليفة بانفعال :

– وحقِّ الله العظيم ، مَن أعلمني بالخبر اليقين وأخبرني أيّ الزوجين مات قبل الآخر أعطيتُه ألف دينار .

وفجأةً استوى « هاني » جالساً في الفراش وهو يقول :

– أنا أُعلمك بالخبر اليقين يا مولاي ! أنا متُّ قبلها يا أمير المؤمنين !

ونهضت « نزهة الفؤاد » بدورها وقالت :

– وأنا لحقتُ به يا مولاتي !

وكانت مفاجأة للجميع ، ضحك لهـا الخليفة وزوجه حتى كادا أن يقعا أرضاً . وسيطر جوُّ الانشراح على جوِّ الانقباض .

قال « هاني » مداعباً الخليفة :

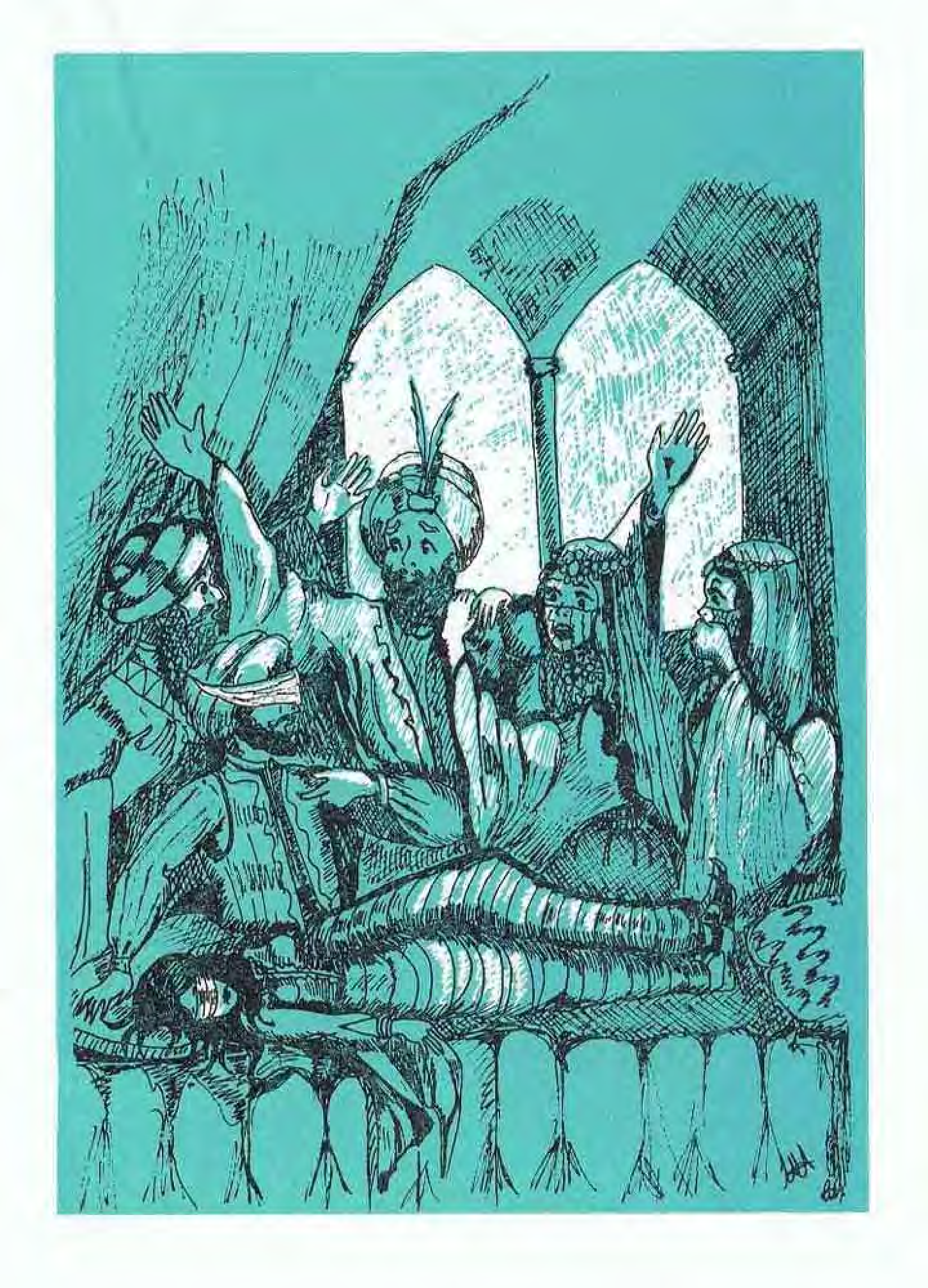
ـ هاتِ الألف دينار التي وعدتَ بها يا مولاي .

دفع الخليفة المال « لهاني » ، وزاد له في معاشه بعد أن اطَّلع على سبب الحيلة التي لجأ إليها . وعاش الزوجان في بحبوحة من العيش تحت ظـل أعظم خلفاء العبّاسيِّين » .

★

وما ان نطقت « شهرزاد » بكلماتها الأخيرة حتى صاح الديك عالياً . وتطلَّع نحوها « شهريار » وقال مازحاً :

ـ طلع الصباح ، وسكتت « شهرزاد » عن الكلام المُباح ! أليس كذلك يا زوجتي العزيزة ؟ أيّ جديد



تخبّئين لمساء اليوم ؟

– كلّ ما يشتهيه مولاي .

– حسناً يا « شهرزاد » . قومي بنا إلى النوم ، فأحاديثك الجميلة أذهبت عنّا النُّعاس وحوّلت ليلنا إلى نهار .

وكلّما زاد « شهريار » معرفة « بشهرزاد » زاد بها حُبّاً من غير أن يدري ، وأصبح خيالها لا يفارقه أبداً ، سواء في مجالسه ، أو في نُزُهاته ، أو في غَزَواته .

أحبَّ فيها أنوثتَها وحدّةَ ذكائها وسَعةَ ثقافتها. وقام في نفسه صراعٌ هائل ، بين حقده وحبِّه : أيقتلها ، أم يُبقي عليها ؟ وكان يبرِّر تردّده وتأجيله بقوله : « لن أقتلها حتى أسمعَ بقيّة أحاديثها » .

القائدُ المسحُور

ولمّا أقبل الليل جلس « شهريار » يُصغي إلى « شهرزاد » تقصُّ عليه قصّتها الجديدة :

« بلغني أيُّها الملكُ العظيم عن قائد كبير من كبار القوّاد يُدعى « إبراهيم شاه » .

كان « إبراهيم شاه » قائداً شجاعاً لا يهاب المخاطر . فقرّبه الخليفة إليه ، وسلّمه زمام المحافظة على الخلافة في « بغداد » . وكانت الخلافة آنذاك قد وصلت إلى أدنى درجات الضعف والانحلال ، وصار الخليفة ألعوبةً في أيدي كبار القوّاد ، وتحوّلت الامبراطوريّة العبّاسيّة العظيمة إلى دُويلات

وإمارات صغيرة استأثر بهـا حكّامُ الخليفـة ومساعدوه .

وقامت الحروب سِجالاً بين هـذه الدويلات ، فكانت الغَلَبة فيها للقويّ على الضعيف ، فيرفع المنتصرُ إلى الخلافة مَن يشاء ، ويُنزل عنهـا مَن يشاء . فجلس على عرش الخلافة في « بغـداد » في فترة من الفترات عدد كبير من الخلفاء ، بعضُهم حكم يوماً واحـداً ، وبعضهم شهراً ، وبعضهم سنة أو أقـلّ !

كان خليفة « بغداد » في تلك الحقبة من الزمان تحت رحمة قائده « إبراهيم شاه » ، « فإبراهيم » هو الذي دفع عن « بغداد » جيوشَ منافسه « رسلان » الذي حاول إنزالَ الخليفة عن الحكم ليضـع مكانه خليفةً آخرَ من أنصاره . حارب « إبراهيم شاه » جيوشَ « رسلان » الجرّارة وهزمها ، وثبّت الخليفة العباسيَّ في مركزه .

وردَّ الخليفةُ العباسيّ الجميلَ لقائده فأغدق عليه

الأموالَ والخيراتِ ، وخلع عليه أجملَ قصوره ، وهو يقع على نهر « دجلة » ، وتحيط به الجنـائنُ والحدائقُ التي تنساب في أرجائها الجداولُ المترنّمة .

في عصر أحد أيّام الصيف جلس « إبراهيم شاه » في حديقـة القصر الغنّاء يترجَّحُ بين الأزهـار والرّياحين ، وقـد سهت حواسُّه عن عالم الحرب والقتال . راح يفكّر بالمجموعة الأثريّة التي يحتفظ بها في إحدى غرف القصر : إنّها مجموعة فريدة ، غالية الثمن ، فيها الكتبُ القيّمة ، والمخطوطاتُ القديمة ، والتماثيلُ والجواهرُ والمسابح .

كانت مجموعة « ابراهيم شاه » حديث رجال البلاط وعظماء البـلاد ، فوصل خبرُهـا إلى مسامع « راكان » الساحر والدِ القائـد « رسلان » ، فزاد حسدُه « لإبراهيم شاه » ورغبتُه في التغلّب عليه .

أقبل « مختـار » ، مستشار « إبراهيم شاه » ، فوجد القائد في أرجوحته شبهَ نائم . فاراد الانسحاب .

ولكنّ « إبراهيم شاه » بادره قائلاً :

ـ قفْ يا « مختار » ، لستُ نائماً . ما وراءك من أخبار ؟

ـ في ساحة المدينة تاجرٌ فارسيّ يبيع التماثيل والكتب والجوهرات القديمة . ولقد شاهدتُ عنده صندوقاً من خشب الأبنوس مطعّماً بالعاج ، يلفت الأنظار بدقّة صنعته وجمالِ زخرفته . فأردتُ أن تراه ، فلربّما اشتريتَه لتُضيفه إلى مجموعتك الأثريّة .

واستوى « إبراهيم شاه » في أرجوحته وقال باهتمام :

ـ إذهبْ يا « مختار » وجئْني بالتاجر وبضاعته حالاً .

خرج « مختار » إلى ساحة المدينة وعاد بالتاجر مسرعاً . إستعرض « إبراهيم شاه » السِّلَعَ كلّها فاعجبه الصندوقُ الذي حدّثه عنه « مختار » ، واشتراه بثمن باهظ .

ولمّا خرج البائع قام « إبراهيم شاه » يتفحّص داخل الصندوق ، فوجد في أحد أدراجه مساحيقَ ناعمةً متعدِّدةَ الألوان والروائح ، وُضِعت في قماقمَ وزجاجاتٍ دقيقة . وكان في درج آخرَ كُرّاسٌ صغيرٌ كُتب بلغة غريبة ، لا هي فارسيّة ، ولا هي تركيّة ، ولا هي عربيّة . وكان « إبراهيم شاه » يُتقن اللغات الثلاثَ إتقاناً تامّاً .

أكبَّ « مختار » على الكُرّاس يحاول بدوره فكَّ رموزه ، ولكنْ من غير جدوى . فقال مخاطباً « إبراهيم شاه » :

ـ « منصور » الفيلسوف عالمُ لغات . سأذهب لآتي به .

ولمّا أتى « منصور » وتصفّح الكرّاسَ قال « لإبراهيم شاه » :

ـ ألكُراس يا سيّدي باللغة الهنديّة ، وهو يدور على مفعول المساحيق الموجودة في القوارير ، فإذا

شئتَ كتبتُ لك بالعربيّة شرحاً وافياً عن كلّ مسحوق وألصقتُه بزجاجته.

أكبّ «منصور» على قراءة الكتاب وعلى ترجمته يوماً كاملاً، فكافأه «إبراهيم شاه» بمبلغٍ كبير من المال.

في اليوم التالي جلس «إبراهيم شاه» يقرأ ترجمة الكرّاس وبجانبه صديقه «مختار»، فاسترعى انتباهَه مسحوقٌ عجيب يحوِّلُ كلَّ من يتناول منه جرعةً معيَّنةً إلى حيوان يفهم لغة البهائم كلّها، ويبقى، مع ذلك، بتفكيره الإنسانيّ وكلامه البشريّ. وإذا أراد العودةَ إلى شكله الأصليّ فما عليه إلاّ أن يقوم بحركات وينطق بتعاويذَ معيَّنةٍ، وللحال يرجِع إلى صورته الأولى.

صاح «إبراهيم شاه»:

— يا له من مسحوق عجيب! سنجرِّبه حالاً. ما رأيك يا «مختار»؟

وقف «مختار» متردِّداً: إنّه عادةً يُشارك سيّدَه حُبَّ المغامرة، ولكنّه، في هذه المرّة، خائف من العواقب. عاد «إبراهيم شاه» إلى سؤاله:

— ما لك لا تُجيب، وأنت كنت أشدَّ رغبةً منّي في أن أشتري الصندوق؟

أجاب «مختار»:

— علينا بالحذر يا سيِّدي، فأنا أخاف أن تقع في ورطة كبيرة. فقد يستحيل علينا العودة إلى شكلنا الطبيعيّ بعد تحوُّلنا إلى حيوانين.

— ليس في الأمر خطر، ونحن نتبع تعاليم الكرّاس حرفيّاً. هيّا، كفانا تردُّداً. لنخرج بعيداً عن عيون الرُّقَباء ونجرِّبْ اكتشافنا الجديد!

سار الاثنان حتى لاحت لهما غابة كثيفة. وقبل أن يَلِجاها شاهدا سرباً كبيراً من الطيور البيضاء يجوب صفحة السماء الزرقاء. ثم رأياه بعد قليل يهبط دفعةً واحدة إلى غدير ماء جميل. هتف

« إبراهيم شاه » :

ـ لنتحوّلْ إلى طائرين من هذه الطيور !

لكنّ « مختاراً » وقف متردّداً ، ثم قال :

ـ إبدأ يا سيّدي أوّلاً ، وسالحق بك أنا فيما بعد .

أخرج « إبراهيم شاه » من جيبه زجاجتين صغيرتين ، فاعطى « مختاراً » واحدةً منهما وجرع هو المسحوقَ الذي في الثانية ، ثم توجّه بنظره نحو الشرق كما ورد في الكرّاس ، وسجد ثلاثَ مرّات متتالية وهو يصيح كلّ مرّة بصوتٍ عالٍ :

ـ زندا ، زندا ، زندا ...

وما ان استقرّ المسحوق في جوف « إبراهيم شاه » حتى تحوّل إلى طائرٍ جميل أبيضَ ، ذي منقار طويلٍ أحمرَ ، لا يختلف بشيء عن بقيّة الطيور التي حطّت قرب الغدير .

ضحك « مختار » حتى استلقى على الأرض ، وصاح :

ـ وربِّ السماء !.. لقد قام المسحوق بفعله السحريّ !

أخذ « إبراهيم شاه » يدور حول نفسه ويتلمّس ريشه بإعجاب . ثم سأل « مختاراً » :

ـ أأنا حقّاً طائرٌ أصيل يا « مختار » ؟

ـ إنتظرْ يا سيّدي ، ستراني على شاكلتك بعد قليل ، فتصدّق قولي .

ووضع المسحوق في فمه ، وقام بالحركات المطلوبة ، ونطق بالكلمات التي ردّدها قبله « إبراهيم شاه » ، وللحال تحوّل إلى طائر . وضحك « إبراهيم شاه » لمّا رآه يختال مَزْهُوّاً بريشه الأبيض ، وقال له مازحاً :

ـ قمْ بنا نطير ونستطلع أمور هذا الكون !

طار الاثنان في الآفاق الواسعة ، وحطّا في أماكنَ عدّةٍ . كانا يستمعان إلى ما يدور من حديث

بين الحيوانات المختلفة الأشكال والألسنة ، فباركا اللهَ في عظمته وقدرته . وقبل غروب الشمس بقليل قرّرا العودة إلى القصر بصورتهما الإنسانيّة ، فحطّا في مكان منزوٍ في الحديقة . هناك أخذا يسجدان وهما يتمتمان باللفظة المطلوبة ، وذلك ثلاثَ مرّات متتاليات ، ولكنّهما لم يعودا إلى صورتهما الأولى !

صرخ « إبراهيم شاه » بانفعال :

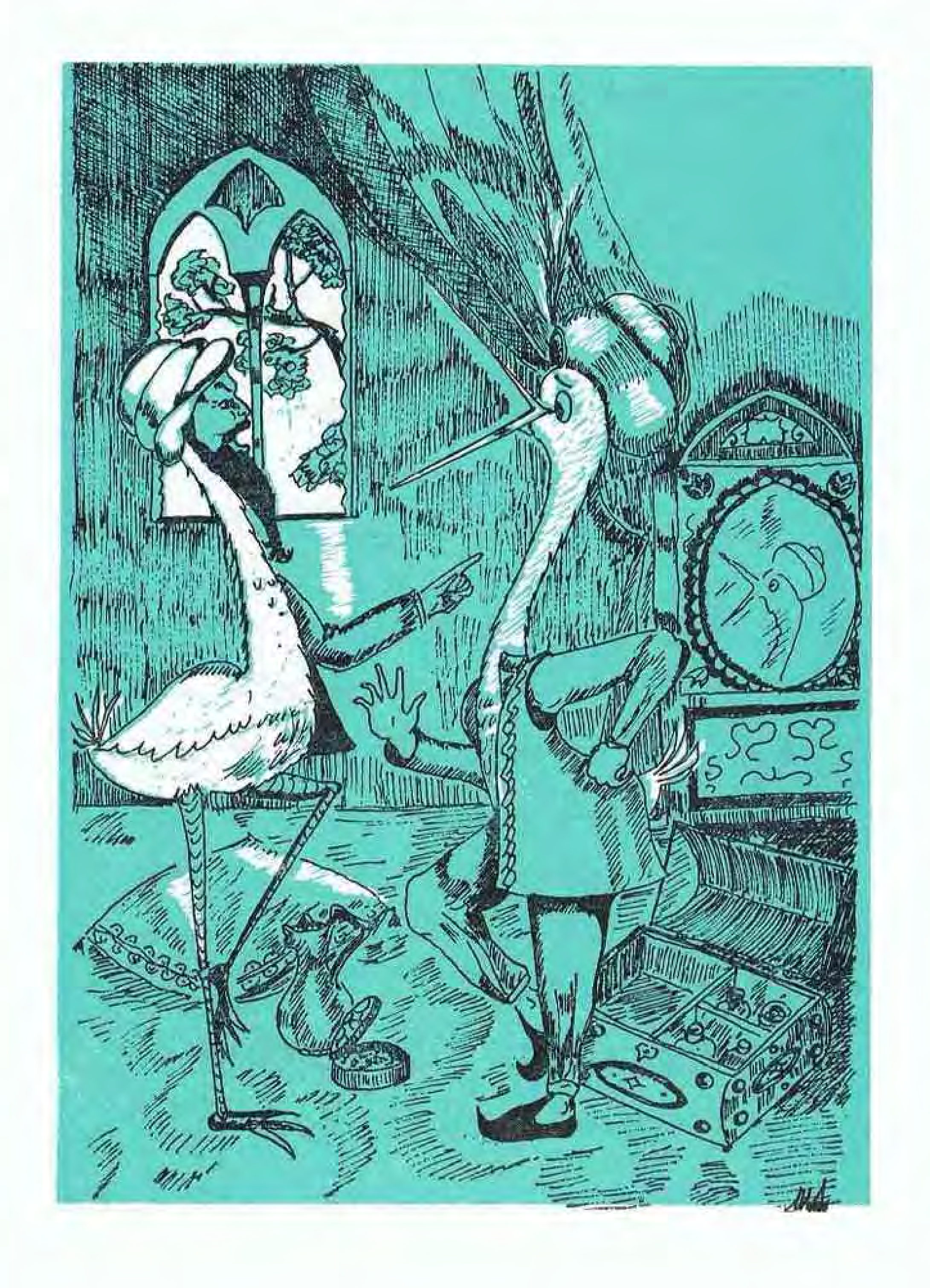
ـ ما بالُنا على حالنا يا صديقي ؟ ما الكلمة التي نطقنا بها ؟

ردَّ « مختار » قائلاً :

ـ زندا زندا هي الكلمة السحريّة . لكنْ يالَهول المصيبة ، نحن لا نزال على حالنا وشكلنا !

وكرّرا العمليّة ، من سجود وترديد كلمة « زندا » ، ولكنْ عبثاً . فطار صوابهما ، وأخذا يفكّران بطريقة للخروج من المأزق الخطير .

قال « مختار » :



ـ لندخل القصرَ ونناد الخدمَ ، ولنطلبْ منهم استدعاء « منصور » ، فربّما وجد لنا حلاًّ .

إعترض « إبراهيم شاه » قائلاً :

ـ يا جاهلُ !.. مَن يصدّقنا ونحن على هذه الهيئة ؟! إنّ جواسيس « راكان » في كلّ مكان من القصر . وهذه الورطة التي نحن فيها هي إحدى ألاعيبه ! لو علم بمشكلتنا وشكلنا لأرسل الصيّادين لقتلنا .

أخذ « إبراهيم شاه » يتأوّه ويتندَّم على ما فعل . وصاح متوجِّعاً :

ـ لم يتمكّن « راكان » وابنُه منّي وأنا بشريّ ، ولكنَّهما الآنَ قادران على قتلي بسهولة . قم بنا يا « مختار » نختفي عن الأنظار .

طارا بعيداً ، وحطّا على إحدى الأشجار وناما عليها حتى الصباح الباكر . ثم رَجعا إلى حديقة القصر ووقفا على شجرة وارفة الظلال يراقبان ما

يجري داخل القصر وخارجه . كان القصر محاصراً بجنود « رسلان » . صدق ظنُّ « إبراهيم شاه » ، وتأكّد أخيراً أنّ خطّة الإيقاع بهما قد دُبّرت بإحكام . « فراكان » هو الذي أرسل التاجر واحتال عليه وعلى مساعده للقضاء عليهما معاً ! وفهم « إبراهيم شاه » أنّ بقاءه وصديقه في الحديقة خطرٌ شديد عليهما .

إنتظرا حتى أسدل الظلامُ سدوله فغادرا الحديقة وطارا بعيداً . ظلاّ على هذه الحال من التنقّل ثلاثة أيّام كاملة ، يستريحان قليلاً ثم يعودان إلى الطيران . حتى لاح لهما ، من بعيد ، قصرٌ مهجور ، فدخلاه وهما يكادان يموتان من شدّة التعب والجوع . وفيما هما يتجوّلان في أرجائه طرق مسامعَهما صوتُ بكاء ونحيب .

سارا بحذر إلى مصدر الصوت ، فوجدا في إحدى الزوايا بومةً صغيرة تذرف الدموع مِدْراراً . صاح « إبراهيم شاه » باستغراب :

ـ يا للغرابة ! بومةٌ تبكي ؟

مسحت البومةُ دموعها بأحد جناحيها ، وقالت وهي تَشرَق بالدمع :

ـ طائرٌ يتكلَّم ! أليس ذلك بأعجبَ ؟

ضحك الصديقان ، وشاركتهما البومةُ ضحكَهما . ثم قالت :

ـ أهلاً وسهلاً بكما ! كيف دخلتُما هذا المكانَ الموحش ؟

ـ قصَّتُنا ، أيَّتُها الصديقةُ ، عجيبةٌ . ولكن يظهر أنّ قصّتك توازيها غرابةً . أخبريني كيف صرتِ إلى هذا المكان ؟

تنهَّدت البومة وقالت :

ـ صدَقْتَ أيُّها الرجل ! أنا الأميرة « هند » ابنة ملك الغرب . أحبَّني ابنُ الساحر « راكان » ، فلمّا رفضتُه احتال عليّ « راكان » وحوّلني إلى شكلي الحاليّ ، ثم حملني إلى هذا القصر المهجور وتركني فيه أبكي وأنوح ، ولا من سامع لبكائي ، ولا من

راثٍ لحالي . ولكنْ رُدَّت الروحُ إليّ برؤيتكما أيُّها الغريبان . فهلاّ أخبرتُماني بقصّتكما ؟

وروى « إبراهيم شاه » قصَّتهما من أوّلها حتى آخرها ، وأفهمها أنّ « راكان » هو سبب مصيبة الجميع .

وبعد ما أنهى « إبراهيم شاه » حديثه صاحت « هند » :

ـ « راكان » الملعون هو سبب شقائنا جميعاً . ولكنْ أيُّها الصديقان ، ربّما وجدنا منفذاً للخلاص منه . أنا في هذا القصر منذ ثلاث سنوات . و« راكان » يزوره مرَّةً كلَّ سنة في مثل هذا الوقتِ ليعقدَ اجتماعاً عامّاً مع السَّحَرة أعوانه . دعونا نستمع إلى أحاديثهم علَّنا نجد طريقةً للنجاة .

جلس الثلاثة يتحادثون . أخبرتهما « هند » بأنَّ ساحرةً صديقةً حذَّرتها مسبقاً من المصيبة التي وقعت فيها ، وقالت لها إنَّ خلاصها منها يكون على يد طائرٍ أبيضَ كبير .

سألها « إبراهيم شاه » :

- وكيف تكون طريقة الخلاص أيّتها الأميرة ؟

تردّدت « هند » قليلاً ثم أجابت :

- أن يطلب الطائر يدي ليتزوّجَني .

وللحال تقدّم « إبراهيم شاه » من « هند » وقال لها بإخلاص :

- أيّتها الأميرة ، أتقبلين الزواج بي ؟

وما أن لفظ آخر كلمة من كلماته حتى سقطت البومة جثّة هامدة . وشيئاً فشيئاً ظهرت فوقها فتاةٌ رائعةُ الجمال هي الأميرة « هند » .

صُعِق الصديقان وصاحا معاً :

- يا إله السماوات ! صدقت نبوءة الساحرة !

أمّا الأميرة « هند » فركعت على الأرض ، ورفعت نظرها إلى السماء وهتفت من أعماق قلبها :

- ربّي ، شكراً لك وحمداً !

ثم التفتت إلى « إبراهيم شاه » وقالت له بامتنان :

- جزاك الله خيراً أيّها القائد النبيل !

عاد الأمل إلى قلوب الجميع بعودة « هند » إلى صورتها الأصليّة . وحمل « مختار » جثّةَ البومة المرميّة على الأرض ووضعها في فجوة الحائط حيث كانت تقف ، حتى يراها « راكان » فيما لو دخل الغرفة ، فيظنّ أنّ الأميرة لا تزال على حالها . ثم بحث « لهند » عن مخبإٍ أمين فادخلها خزانةً خشبيّة في غرفة صغيرة مهجورة ، بانتظار انعقاد مؤتمر السّحرة .

*

في صباح اليوم التالي وصل القصرَ المهجور عددٌ كبير من الخدم يحملون الطعام والشراب على أنواعها ، وقاموا توّاً إلى تنظيف قاعة القصر الكبرى ، ثم فرشوها بالسجّاد والأرائكِ المريحة ، ومدّوا في وسطها مائدةً عامرةً بما لذّ وطاب .

بدأ السّحَرةُ يَفِدُون إلى القصر ، وكان « راكان » أوّل القادمين . ولمّا التأم شملُ الجميع جلسوا حول المائدة يتحادثون ويشربون . وفعلت الخمرُ

فعلَها في الرؤوس ، فنسوا الحذرَ ، وأخذ كلٌّ منهم يتباهى بأعماله وأفعاله .

قال « راكان » مزهوا :

ـ تمكَّنتُ من القائد « إبراهيم شاه » ومساعدِه « مختار » بالسِّحر والحيلة ، بعد ما عجز ابني « رسلان » عن التغلُّب عليهما بقوَّة السلاح . و « رسلان » اليومَ أعظمُ رجل في الخلافة العبّاسيّة ، بعد الخليفة، والخليفة نفسُه يتودَّد إليه ويبتغي رضاه .

وسأل أحد السحرة :

ـ أيُّها المعلّم الكبير ، أخبرنا كيف تغلَّبت على « إبراهيم شاه » ؟

أجاب « راكان » بمكر وخبث :

ـ أرسلت إلى « إبراهيم » تاجراً يحمل سلعاً أثريَّة ، وأنا اعرف حبَّه لكلِّ قديم وقيِّم . فأُعجب بصندوق من خشب الأبنوس كنتُ قد وضعت في أحد أدراجه مساحيقَ مسحورةً ينقلب مَن يتناولها

حيواناً . ولم يفطن « إبراهيم » للمكيدة فأسرع يتناول مسحوقاً منها ، وأعطى صديقه « مختاراً » منه ، وظنّا أنّ بإمكانهما العودةَ ساعةَ يشاءان إلى هيئتهما البشريّة ، وذلك بأن يَتْلُوَا بعضَ العبارات ويقوما ببعض الحركات التي كنت قد دوَّنتُها في كرّاس وضعته مع المساحيق. وبالطبع كانت هذه العبارات والحركات زائفةً لا نفع فيها . ولا شكَّ أنَّ الرجلين تائهان الآنَ في الأدغال بين الحيوانات ! لن يعود الماكران إلى صورتهما الأصليّة أبداً ، فحياتُهما في يدي ، وسوف أبقيهما على شكلهما الحيوانيّ مدى الحياة .

صفّق المدعوُّون إعجاباً « براكان » ، وبادره أحدهم :

ـ ما هي الكلمة السحريَّة التي تعيدهما إنسانين أيُّها المحترم ؟

ـ لن أقول لأحد أيُّها الصديق ، لأنَّها مفتاحُ لسجن « إبراهيم شاه » و « مختار »

وعاد الساحر يُلحُّ في الطلب :

ـ أيُّها المعلّم الجليل ! أذكر لنا الكلمة ولا تخَفْ ، فنحن هنا في مكان أمين . ولا تَنْسَ أنَّك المعلِّمُ الأكبرُ ، وعلى المعلِّم أن لا يحرمَ الطلاّبَ فضائلَ علمه !

أجاب « راكان » وقد تملَّكه الغرورُ :

ـ لك ما تشاء أيُّها الصديق ! « أهريمان ! أهريمان ! سيِّد المكان والزمان ! » هذه هي الكلماتُ التي تعيد « إبراهيم شاه » و « مختاراً » إلى الحياة الطبيعيّة . ولكنْ إيّاك أن تنطق بها أمام أحد !

سمع « إبراهيم شاه » و « مختار » من مخبئهما حديثَ السَّحرة ، فخرجا بحذر إلى غابة قريبة من القصر . ثم ردَّدا معاً بصوت خافت مرتجف : « أهريمان ! أهريمان ! سيِّد المكان والزمان ! » .

وللحال تساقط الريشُ عنهما ، وعادا إلى ما كانا عليه قبل تناول المسحوق المسحور ! وركضا مسرعين إلى

جناح القصر المهدوم حيث كانت « هند » ، فدخلا عليها فجأة من غير إنذار ، فصاحت « هند » خوفاً ورعباً لأنها ظنَّت أنّ الداخلين من أعوان « راكان » اكتشفا أمرها وجاءا ليقتصّا منها . وفطن « إبراهيم شاه » إلى ما يدور في رأس الفتاة ، فناداها بصوت خافت حنون :

ـ أنا « إبراهيم شاه » يا « هند » ، وهذا « مختار » ! لقد استجاب الله لنا ودلّنا على طريق الخلاص .

وراحا يخبران « هند » بما سمعا في قاعة القصر ، وكيف تمكّنا من العودة ثانية إلى الحياة الطبيعيّة .

قال « إبراهيم شاه » :

ـ هيّا بنا ! لنترك القصر حالاً ؛ فالليل مُظلم يخفي هروبنا ، والخمرُ قد لعبت برؤوس السحرة ، وهذه أفضل فرصة للنجاة تُتاح لنا .

خرج الثلاثة من القصر وتوغَّلوا في الغابة القريبة ، وظلّوا يمشون فيها حتى خرجوا منها

صباحاً ، فوجدوا أنفسهم يُطلّون على مدينة تقع
في وادٍ مخضوضر جميل .

يمّم الثلاثة شطرَ المدينة على الرغم من تعبهم
وجوعهم،فوصلوها منهوكي القوى.ولم يضيعوا الوقت في
الراحة والانتظار ، بل سارعوا إلى شراء ثلاثة خيولٍ
أصيلة بثمن باهظ ، فركبوها وأخذوا ينهبون بها
الأرضَ نهباً باتّجاه بلاد « هند » ، فوصلوها ليلاً .
وكانت مُفاجأة للملك وزوجته أن يشاهدا « هند »
بعد اختفائها مدّةً طويلة واعتبارها في عالم الأموات .

أقيمت الحفلات والولائم ، واحتُفل بزواج
« إبراهيم شاه » بالأميرة « هند » . ودامت الأفراح
أسبوعاً كاملاً قام بعده « إبراهيم شاه » يتجهّز للعودة
إلى بلاده .

أذن ملك الغرب والد « هند » «لإبراهيم شاه » وابنته
و « مختار » بمغادرة بلاده، وزوّدهم بالمال والرجال
والعتاد لمحاربة أعدائهم . سارت الجيوش باتّجاه
« بغداد » ، وكان « إبراهيم شاه » قد أرسل بعض

الرجال سرّاً ليعلموا أعوانه بعودته ويطلبوا منهم
الاستعداد للثورة داخل « بغداد » .

دخل « إبراهيم شاه » « بغداد » تحت جنح الظلام ،
وقد تخفّى وجنوده بزيّ التجّار والفلاّحين . وهناك
فاجأوا « رسلان » وجنوده الغارقين في لهوهم ومسرّاتهم ،
فتغلّبوا عليهم بسهولة .

عاد « إبراهيم شاه » إلى قصره وعزّه ، وسُرّ
الخليفة العبّاسيّ بعودته سالماً ، وأغدق عليه المال
والهبات . وقتل « إبراهيم » « راكان » الساحرَ ،
ولكنّه عفا عن ابنه « رسلان » لأنّه أدرك أنّ
« راكان » كان أصلَ البليّة .

عاش « إبراهيم » وزوجته « هند » الأيّامَ الطّوالَ
يرفلان بالسعادة والنعيم ، طيّب اللهُ عيشَ
السامعين » .

...وسكتت "شهرزاد"

وهنا صاح الديك ، فقالت « دنيازاد » :

ـ طلع الصباح ، وسكتت « شهرزاد » عن الكلام المُباح !

ومضت الليالي على هذا المنوال حتى بلغت ألف ليلة وليلة . وفرغت جَعبة « شهرزاد » من القصص والأخبار ، ووجدت نفسها عاجزةً عن تلبية المزيد . فتقدَّمت من الملك « شهريار » في الليلة الأخيرة وقالت له :

ـ يا ملك الزمان ، وفريدَ العصر والأوان . لي ألف ليلة وليلة وأنا أحدِّثك بحديث القُدَماء

والمُحْدَثين من ملوك وأمراء وعامَّة ، وأروي لك أخبارَ الدُّهاة والصالحين . والآنَ وقد فرغت جعبتي ، ونفدت معلوماتي ، عليَّ أن أعود إلى المطالعة والتزوُّدِ بأخبار جديدة ورواياتٍ فريدةٍ . وقبل أن أبدأ عملي الجديد لي مطلبٌ عند مولاي ، لو حقَّقه لي كنتُ له شاكرةً مدى الحياة .

أجابها « شهريار » :

ـ أُطلبي يا « شهرزاد » وتمنَّي .

قامت « شهرزاد » من مجلسها ونادت إحدى جواريها ، ثم أسرَّت في أذنها كلاماً خرجَت الجاريةُ على أثره من الغرفة ، ثم ما لبثت أن عادت بعد قليل ومعها ثلاثةُ أطفال صغار ، واحدٌ يمشي ، وواحدٌ يحبو ، وآخرُ رضيعٌ ضمَّته بين ذراعيها .

تلقَّت « شهرزاد » الأطفالَ الثلاثة ، فدفعت بالكبيرين إلى حضن الملك ، وأبقت الصغير في حُجْرها . ثم ركعت على الأرض وقالت :

ـ باسم أولادك يا مولاي حقِّقْ لي أمنيَّتي ، وهي أن تُبقيَني على قيد الحياة حتى أرعاهم وأعنى بك .

إغرورقت عينا الملك بالدموع ، وبكى بصوتٍ عالٍ وهو يضمُّ ولديه الصغيرين إلى قلبه . ثم قام من مكانه ، وأمسك بيد « شهرزاد » وأجلسها برفقٍ إلى جانبه ، وقال لها :

ـ بُورِكْتِ أيَّتُها الزوجُ الوفيَّةُ والأمُّ الصالحة . لقد عفوتُ عنك منذ الليلة الأولى إذ وجدتُ فيك المرأة الصالحة والزوجَ المنشودة ، ولم تكن الأيّامُ إلاّ لتزيدَني حبّاً لك وتقديراً ، حتى أمست حياتك أغلى عندي من حياتي .

وللحال أمرَ « شهريار » مجلِسه بالانعقاد ، فحَضرَ الوزير « مرزوان » والدُ « شهرزاد » ، وتبعه الوزراء والحكّامُ والقوّاد ، وأربابُ الدولة . وقف « شهريار » في الحضور مخاطباً :

ـ أيُّها الكرامُ ! هذه « شهرزاد » زوجتي ، وأمُّ أولادي ، ومليكةُ بلادي .

ثم التفت إلى وزيره « مرزوان » قائلاً :

ـ جازاك اللهُ خيراً أيُّها الوزيرُ الكريم ، إذ قبلتَ أن تزوِّجَني ابنتك الشريفة بعد كلّ ما ارتكبتُ من جرائمَ بشعةٍ بحقِّ نسائي السابقات . فابنتُك هذه كانت سبباً لتوبتي عن قتل بنات الناس . ولقد غمرني اللهُ بإحسانه فرزقني منها ثلاثة أولاد ذكور هم كالبدر طلعةً وجمالاً . فحمداً لله وشكراً لنعمه .

ثم خلع الملك « شهريار » على وزيره الدُّورَ والقصورَ ، وأعطى « دينازاد » الجواهرَ والمال . كذلك أغدق على الحضور الهباتِ والعطايا الثمينةَ تيمُّناً بالذِّكرى السعيدة . وأمرَ بتزيين المدينة ، وبفتح أبواب القصر مدّة ثلاثين يوماً يدخل إليه من يشاء من أغنياء

وفقراء فيأكلون ويشربون ويمرحـــون ؛ وطلب من أعوانه أن يتصدَّقوا على الفقراء من أمواله الخاصّة ؛ وعيَّن يوماً في الأسبوع يأتي فيـــه إلى القصر كلُّ سائـل ، فيتسلَّم منـه مبلغـــاً من المـال يقوم بسدِّ حاجاته .

*

وبعد ما انتهت الأفراح ، وعـــاد القصر إلى الهدوء ، جمع الملك « شهريار » كبار المؤرّخـــين والنُسَّاخ وأمرهم بأن يدوّنوا قصص «شهرزاد» كلَّها ، وأن يجمعوها في مجلَّدات تغلَّف بالذهب الخالص ، ويحفظوها في خزانة المملكة لتكونَ مرجعاً لأولاده وأحفاده . وأطلق على هذه القصص اسم « ألف ليلة وليلة » .

وكان للملك فوق ما طلب وتمنَّى ، فانتقل كتاب « ألف ليلة وليلة » خالداً طيَّ العصور والأجيال ، حتى

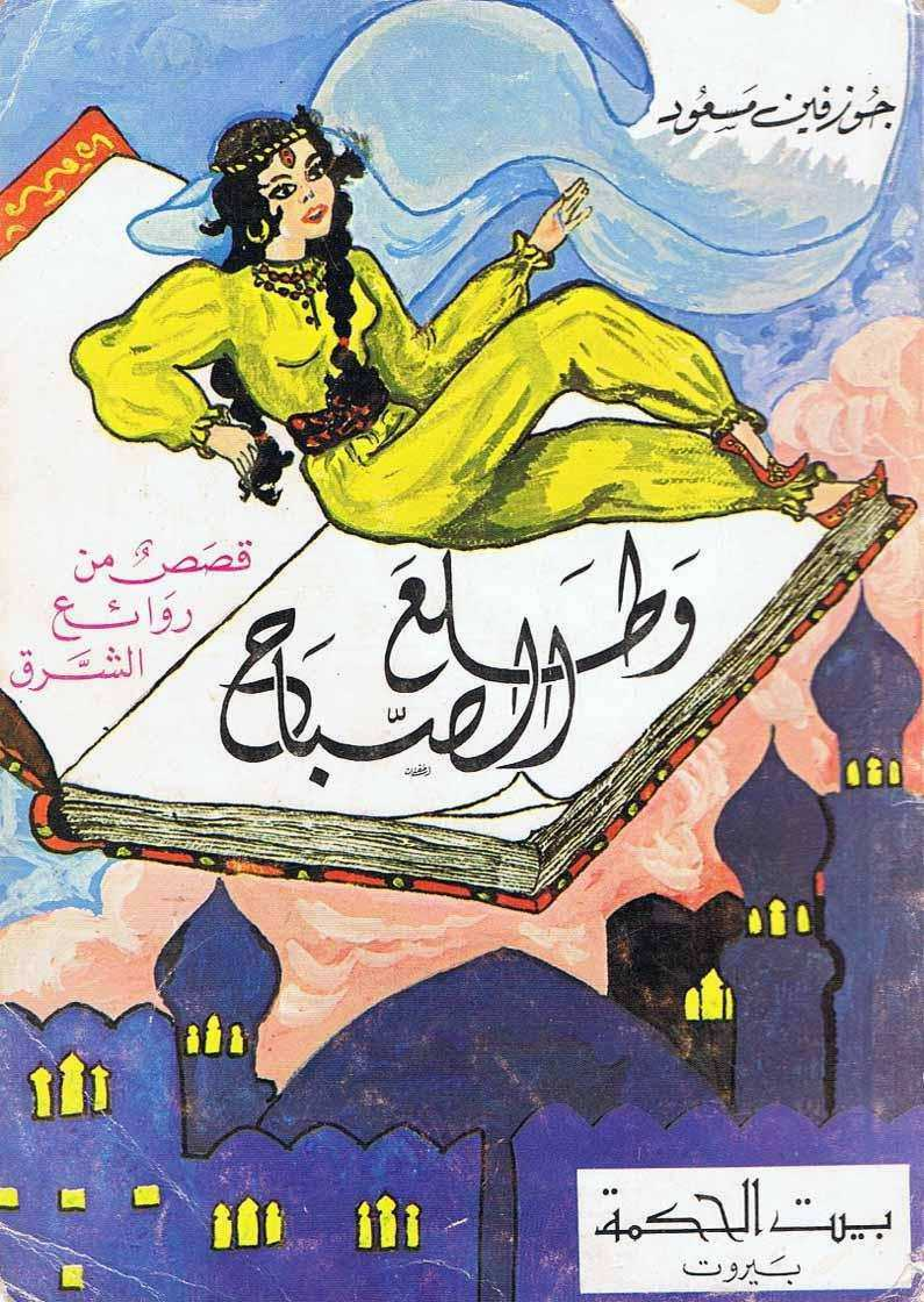
وصل إلينا اليومَ بأخباره وقصصه وملحه التي تأخذ بمجامع القلوب . ولقد تناقلته الأممُ في الشرق والغرب ، وأقبل عليه القُـرّاء ، صغاراً وكباراً ، يقرأونه في لغات العالم الراقية .

محتوى الكتاب

الصفحة

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩٧٨
على مطابع دار غندور – بيروت

١٢٤ / ٤ – ١٩٧٨


جُوزفين مَسعُود
وَطَلَعَ الصَّباح
قصصٌ من روائع الشرق
بيت الحكمة
بيروت